العمائم الثائـرة

العمـائـم الثائـرة

حاتـم إبراهيـم سلامـة

العمائم الثائرة

اسم الكاتب: حاتم إبراهيم سلامة
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: نانيس جنيدي
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى
رقم الإيداع: /٢٠١٨

طبعت بمطبعة الشروق

حقوق التوزيع

Facebook.com/arabiclibrary2017

مقدمة

يصيبني هم ثقيل حينما أرى عالمًا من علماء الدين مات ضميره، وانعدم شرفه، وصار يستغل دينه وعلمه لخدمة الحكام والسلاطين، طامعًا في دنياهم، لاهثًا وراء مغانمهم.. وحينما أعود بالتاريخ للوراء، أرى فرقًا هائلاً وبونًا شاسعًا بين العلماء الأحرار والعلماء العبيد الذين رمانا بهم هذا الزمان.

إن علماءنا قديمًا فهموا واستوعبوا أنهم قادة الأمة، وأنهم مسؤولون عنها، وأنهم داخلون في معنى أولي الأمر، ومن ثم.. كانوا في كل ملحمة بارزين، وفي كل ثورة قادة قائمين موجهين منظمين.. لقد عاركوا الولاة الظالمين، وتسببوا في إقالة الكثيرين منهم، وكانوا صوتًا مرعبًا مرعدًا لكل من كانت تسول له نفسه، أن يحيف أو يجور على خلق الله..

هكذا كان علماء أمتنا وأبطال حضارتنا، قادة الشعب وزعماء التحرر، ورواد الإصلاح والنهوض، كانوا كذلك في الوقت الذي كان رجال الدين في أوروبا، كما يصفهم أحد المفكرين: يعادون الشعوب، ويقفون مع السلطة في مواجهة الحرية والعدالة والفكر والتقدم.

إن بعض المستشرقين في أوائل القرن العشرين، صرحوا بأن سبب تأخر العرب والمسلمين، إنما يعود لانعدام العلماء والمفكرين والمصلحين؛ المستعدين للتضحية في تاريخنا الحديث.. كما أكدوا في الوقت نفسه أن التاريخ الأوروبي حافل بالعلماء والمفكرين والادباء، الذين قالوا كلمة الحق في المواقف العصيبة، واستطاعوا أن يفدوا الحرية ويضحوا في سبيلها، مهما كانت العاقبة ومهما كان الغرب.. لقد تعرضوا لكثير من القهر والاضطهاد

وهو السبيل الذي استطاعوا من خلاله بناء النهضة والحضارة الأوربية الحديثة، بل أشاروا بأن كل مظهر من مظاهر التقدم إنما كان وليدًا لهذه المو اقف التي حررت الانسان الغربي.

ونحن نؤمن بما لا شك فيه، أن تردي أحوال المسلمين وضعفهم وتخاذلهم، وسيرهم في ذيل الأمم مهزومين مخذولين تابعين خانعين، إنما يرجع في صميمه لضياع القدوة الربانية، وتهميش القيادة المؤمنة من و اقعهم وحياتهم، والمتمثلة في العلماء العاملين الربانيين المخلصين، الذين كان رضاء الله غايتهم، ونصرة الضعفاء سبيلهم، ومحن الأمة همومهم، وآلامها آلامهم.. لقد ثاروا على البغي ولم يخشوا في الله لومة لائم، ولم يقصروا في نصرة المظلومين ورد الجائرين، ومواجهة كل متكبر غشوم غره سلطانه وظن أنه فوق البلاد والعباد.!

لقد كان هناك تآمر كبير على هذه الطليعة الربانية، ومحاولة القضاء على سلطانها في نفوس الجماهير، حتى تُصبح الأمة بلا قيادة حقيقية، تقود مسيرتها وتنصر قضاياها، لقد وجه عملاء الاستعمار وأعداء الإسلام، ضرباتهم المتتابعة للقيادات المؤمنة، التي التفت حولها الجماهير، وكادت أن تعيد ذلك السلطان المفقود للعلماء الربانيين والقادة الفاعلين.. فهم يكرهون أن تقوم في أزمانهم هذه الصورة المؤرقة التي يعرفونها جيدًا، ويخبرهم عنها التاريخ، فلا يضرهم أن يعترضهم معترض، أو يقف في وجههم عائق، شريطة أن لا يرتبط اسمه بالإسلام أو تنتمي به هويته، فهذا أكثر ما يفزعهم ويؤرق قرائحهم! ومن ثم بدأ الكيد الخبيث للكيان العلمي الكبير (الأزهر) الذي خرّج و أنتج هؤلاء العظماء الشجعان.. فتلاعبوا في مناهجه، و أفسدوا نُظمه، ونصبوا عليه من لا يعرفون للعلم هيبة، ولا يقدرون له حرمة، ولا يدركون له مسؤولية، وكانوا مطية تحت أقدام السلاطين،

يوجهونهم حيث يريدون ويرغبون، فيحلون لهم الحرام، ويحرمون عليهم الحلال، ويُقرون لهم كل فساد وظلم.! و أفسحوا المجال والسباق لعلماء السوء، الذين باعوا ضمائرهم ودينهم، و آثروا الضلال على الهدى، وجعلوا من الحكام رسلاً و أنبياء، وكانوا عقبة في طريق الحق، وشوكة في حلق أهله و أنصاره، وأداة خبيثة يستغلها الجائرون لضرب خصومهم وتشويه حقيقتهم الناصعة.

لقد جاءت هذه الصفحات بما تحمله من صور العلماء الأبطال، الذين ثاروا على الظلم والقهر، ووقفوا في وجه الطغيان، لتكون صيحة في آذان الخاملين التائهين من العلماء والدعاة، تستنهض هممهم، وتدفعهم ليأخذوا بناصية القيادة من جديد، ليكونوا ألسنة الحق وأرباب صولته وكلمته، في وجه المستأسدين المتجبرين على الضعفاء من عباد الله.. مُثل ترشدهم لدورهم الغائب، ومسؤوليتهم التي تخلوا عنها في قيادة هذه الجماهير الضائعة، حتى يحققوا صورة القيادة الربانية، التي تمثل روح الأمة وهويتها الإسلامية، لأنها تنطق بأمر الله، قوية عزيزة، متحصنة بالإيمان، معتزة باليقين.. تُحطم كل صنم يُعبد من دون الله، وتُسقط كل كلمة تعلوا على كلمة الله.. وتُنكس كل راية تخفق فوق راية الله.. نُريد لهذه الأجيال أن تعلم عبر هذه السطور، أن تاريخهم زاخر بالعلماء المجاهدين الثائرين الأبطال الشجعان، الذين كانوا يطلقون كلماتهم كالسيوف القواطع في وجه الطواغيت الظالمين، فيردون الحقوق وينصفون الضعفاء، ويهدمون غرور المتألهين.

حاتم إبراهيم سلامة

تمهيد

التآمر على القيادة المؤمنة..

لقد قامت الحرب على كل ما هو إسلامي، وكان هناك بغضًا شديدًا لقيادة العلماء لزمام الأمور، ورغبة قوية لإزاحتهم من الساحة، وإزالتهم من الصورة؛ والغاء حضورهم الجماهيري.. فكل شيء مقبول، وكل كلام مسموع، إلا ما كان موسومًا بالصبغة الإسلامية.. لقد كان هناك تخطيط واضح ومعلوم لتشويه العلماء، وامتهان مكانتهم، والحد من سلطتهم، و إفساح المجال للقيادات المنحلة، لتمثل الأمة وتقود الجماهير.. يقول الدكتور (محمد رجب البيومي) في كتابه عن إمام العربية الأكبر (مصطفى صادق الر افعي): "ونحن نتساءل هل نال المدافعون عن الحكم الإسلامي، بعضًا من الحظوة التي ينالها المنحرفون؟ إننا نلتفت ذات اليمين وذات الشمال، فنجد أصحاب الانحراف يتبوؤون أرقى المناصب، ويتصدرون الصفحات الأولى في أمهات الصحف، ويُنتشر لهم دوي مزعج في أدوات الإعلام المختلفة، بينما يحاول أنصار الفكرة الإسلامية نشر آرائهم، فتضن الصحف عليهم بمساحة صغيرة تعلن عن رأيهم الصحيح، وتكتفي بتلخيص الرد إذا جاء من مسؤول كبير! حتى صرح شيخ الأزهر شاكيًا من إهمال الصحف لردوده! فإذا اشتكى شيخ الأزهر وهو الرأس الأعلى للإسلام في مصر من إهمال ردوده القاطعة، فبماذا يُعامل من دونه من العلماء والدعاة وهم يسمعون اللغو الشائن، ويقرؤون السفه المنكر، ثم تدفعهم الغيرة الإسلامية إلى إحقاق الحق، فلا يجدون المجال المتسع للنشر! بل يجدون من يرميهم بالتعصب والتزمت دون حياء.. أذكر أن جمعية الشبان المسلمين عند تأسيسها الأول، قد صادفت حربًا ضارية لا لشيء، إلا لأنها ستكون جمعية

إسلامية في بلد إسلامي! مع أن جمعيات أخرى تنسب لطوائف دينية تجد التأييد التام، والمعونة المطلقة، ونحن لا نمنع أن تنتشر الجمعيات الدينية إسلامية وغير إسلامية، لتدعو إلى الفضائل الإنسانية كما رسمتها الأديان الصحيحة، وإنما نمنع أن تعلو الصيحات عند إنشاء جريدة إسلامية أو جمعيات للشبان المسلمين، وكأننا بذلك نهدم بناء شامخًا، ورسوا حصينًا يحمي البلاد.!"()

ولعل هذا ما ظهر بوضوحٍ شديد في صراع الاستعمار الإنجليزي مع المقاومة المسلمة في الهند، حيث أدرك أنه من المستحيل أن يستسلم المسلمون ويرضخوا لسياسة الأمر الواقع، وفي ذلك يقول الحاكم البريطاني في الهند (النبرو): (إن العنصر الإسلامي في الهند عدو بريطانيا اللدود، وإن السياسة البريطانية يجب أن تهدف إلى تقريب العناصر الهندوكية إليها، لتساعدهم في القضاء على الخطر الذي يتهدد بريطانيا في هذه البلاد).

لقد علمت بريطانيا أن بقاءها في الهند لن يُكتب له الاستمرار في ظل مقاومة إسلامية صُلبة ترفض الذوبان والانبطاح والتوسل للمحتل، فلجأت إلى تنفيذ سلسلة من الخطوات الرامية إلى خلخلة هذه المقاومة وكسرها، عبر بعض الخطوات التي كان منها:

"*إقامة حزب المؤتمر الوطني الهندي، ليحي القومية الهندوسية الوثنية القديمة، لتكون عوناً لبريطانيا في محاربتها للإسلام والمسلمين في شبه القارة الهندية.

()- مصطفى صادق الرافعي فارس القلم تحت راية القرآن .د- محمد رجب البيومي

* تأسيس الحركات الهدامة التي تتسمى باسم الإسلام مثل القاديانية، التي نفت مبدأ ختم النبوة، ونبذت الجهاد ومقاومة المحتل، ودعت إلى طاعة الإنجليز والقبول بسياسة الأمر الواقع.

* تزوير التاريخ الجهادي للأمة المسلمة عن طريق نشر الكتب والمؤلفات التي تنبذ الجهاد والمقاومة، ومن ذلك كتاب المستشرق، تومس آرنولد: الدعوة إلى الإسلام.

*إبعاد العلماء وعزلهم عن قيادة وتوجيه الجماهير المسلمة، وإيجاد زعامات قومية إسلامية، تفتخر بقوميتها على حساب انتمائها إلى دينها وإسلامها.

وكان غاندي الهندوسي الديانة، هو الورقة التي لعب بها المستعمر، لكسر شوكة المقاومة الإسلامية، حيث قام (ريدينج) الحاكم البريطاني للهند بالاجتماع (بغاندي) وقال له: (إن مصدر الحركة الاستقلالية في الهند هم المسلمون، وأهدافها بأيدي زعمائهم، ولو أجبنا مطالبكم، وسلمنا لكم مقاليد الحكم، صارت البلاد للمسلمين، وإن الطريق الصحيح هو أن تسعوا أولاً لكسر شوكة المسلمين، بالتعاون مع بريطانيا، وحينئذ لن تتمهل بريطانيا في الاعتراف لكم بالاستقلال، وتسليم مقاليد الحكم في البلاد إليكم).

وبناء على التنسيق والتفاهم الذي تم بين (ريدينج) و(غاندي)، قامت بريطانيا بالقبض على الزعماء المسلمين المنادين بالاستقلال، فأصبح الطريق ممهدًا أمام (غاندي) الذي طلب من هيئة المؤتمر الإسلامي الهندوسي، بأن تُسلم له مقاليد الأمور بصفة مؤقتة، نظرًا لقبض بريطانيا على الزعماء المسلمين، وعندما عقد أول اجتماع برئاسة (غاندي)، نفذ ما تم

الاتفاق عليه مع الحاكم البريطاني (ريدينج)، وأعلن أن الوقت لم يحن بعد لاستقلال الهند."[1]

ويقول الاستاذ أنور الجندي: "غاندي سرق الحركة الوطنية من المسلمين. والهندوسي الهندي المتعصب الذي أخفى هندوسيته البغيضة وراء المغزل والشاة. وكان أول سياسي طالب بتأجيل الاستقلال منادياً بمهادنة السلطة وعدم مناوأة حكومة الاستعمار، لقد بدأت الحركة الوطنية لتحرير الهند في أحضان الحركة الإسلامية وقد أزعجت الاستعمار البريطاني هذه الخطوة فعمد إلى القضاء عليها بأسلوب غاية في المكر والبراعة نحى بها المسلمين عن قيادة الحركة الوطنية وأسلمها إلى الهندوس، وأجراها على الأسلوب الذي سيطر على الهند بعد ثورة ١٩٥٧ التي قادها المسلمون كان حريصاً ألا يتحقق للمسلمين السيطرة على الهند بعد أن ظلت تحكم الهند أكثر من خمسمائة عام مرة أخرى بعد أن أسقط دولتهم .."[2]

لقد كان لعلماء الأزهر دورهم في التنديد والاستنكار بسقوط الخلافة الإسلامية على يد الطاغية اللعين أتاتورك، لقد صدحوا بأقلامهم وأصواتهم يدينون حربه للشريعة، وطمسه لمعالم الإسلام، وقضائه على مظهر القوة فيه وهي الخلافة الجامعة، التي كانت تمثل شريان الوحدة بين بلاد الاسلام وشعوبه.

وحينما هب العلماء هذه الهبة المدوية، فضحًا لهذا العميل المخرب، كانت هناك ردة فعل قام بها العملاء وأذناب الاستعمار وأعداء الهوية

---

[1] - أسطورة غاندي – د. خالد الغيث - موقع صيد الفوائد

[2] - رجال اختلف فيهم الرأي – الاستاذ أنور الجندي

الإسلامية، فهاجموا العلماء بلا هوادة وطعنوا في ذممهم وشخوصهم، وادعوا كذبًا أنهم كانوا على مر العصور سدنة الأنظمة، ومطايا الظالمين ودعاة المستبدين، كما رموا علماء تركيا بأوابل البهتان ونسبوا إليهم الرشوة والفساد والتملق وسلب الحقوق بدعاوى كاذبة، لم يقدموا عليها دليلاً واحدًا يبين صدقها.!

فكان لابد من استجلاء الحقيقة، والرد على البهتان، وفضح هذا الكذب البواح، الذي يشوه حقيقة العلماء ويظلم دورهم التاريخي في حياة الأمة، وهو ما قام به زمرة من العلماء والكتاب والأدباء الذين أعادوا للأذهان بأقلامهم هذا التاريخ البطولي لعلماء الاسلام الذي أُهمل وشابه الكذب وتناسته الاجيال، وكان على رأس هؤلاء وألمعهم الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي الذي خطط ليعيد إلى الساحة هذا التاريخ المغمور الذي تضج به كتب الطبقات والتراجم ولا يعرفه المسلمون.. تاريخ يحكي شمم العلماء المسلمين وجسارتهم في مواجهة السلاطين الغاشمين، وأهل البغي من الحكام المستبدين فوقفوا للمنكر وتحدوا أطماع الطامعين.

لقد كتب عن سعيد بن المسيب، وعامر الشعبي، وابن حنبل والعز بن عبد السلام والحسن البصري وغيرهم من علمائنا الأبطال، والفقهاء المغاوير، وأصحاب الشجاعة النادرة، ممن كان له دويه وأثره في الساحة الثقافية والسياسية، حتى التفت القاصي والداني، لما كانت تجهله العقول، وتغفله الأذهان.!

بل أوحى فعل الرافعي لكثير من الكتاب والأدباء، كشف النقاب عن ثقافتنا الإسلامية، وما فيها من بطولة وفداء، ونماذج حري بالبشرية أن تتعلم منها شِيم التحدي والإباء.

لقد كتب (توفيق الحكيم) مسرحيته التاريخية (السلطان الحائر)، وقام فيها بتصوير المواقف الشجاعة لسلطان العلماء (العز بن عبد السلام)، التي تحدى فيها نفوذ الأمراء والملوك العتاة الظالمين، وبين فيها إلى أي حد، قدم هذا العالم الجليل حياته فداء للحق، وعرض نفسه في سبيل مبادئه، للهلكة والمضرة والخطر العظيم، بصورة لا مثيل لها بين مصلحي الأمم وزعماء الشعوب.! وكان عدد كبير من القراء والمثقفين، مندهشون لهذه البطولة النادرة التي قدمها العز بن عبد السلام.. وظنوا أنها لم تكن لغيره من العلماء، وأنها كانت شاذة في تاريخهم وحياتهم.. ولو أنهم قلبوا هذا التاريخ، لرأوا فيه أن العزة والبطولة والتحدي والثورة ومواجهة الباطل، لم تولد إلا على يد علماء الإسلام، ولم يحفل بالكثير منها، كما يحفل تاريخهم الناصع وحياتهم المباركة.!

إن الدعاة العاملين، والعلماء الربانيين، كانوا الهدف المباشر لأعداء الإسلام، حيث كالوا لهم التهم ورموهم بالشبهات حتى يُزعزعوا ثقة الناس فيهم، ويتخلوا عنهم ولا يؤمنون بهم، كقيادة تقودهم وتتبنى قضاياهم، وتهتم بشؤونهم، ويتركون طاعتهم، ولا ينقادون لهم في شيء.. ولقد كان من أكثر ما يعتمدون عليه في هدم هذه الثقة، هو رميهم بالإشاعات الكاذبة، واصطناع السمعة السيئة، التي تُحقق خبثهم المنشود، وإظهارهم بمظاهر الاستهزاء، لتسقط هيبتهم في النفوس.. "ففي فترة الستينات حيث ركزت الحرب ضد هذا الدين تركيزًا أثيمًا لم يسبق له نظير، حيث خرج في الساحة سيل من النكات على العلماء أو الشيوخ أو المسلمين المتمسكين بدينهم مما كان له الأثر البالغ والسيء في النفوس، وأثره التهديمي الواضح في مقامات الأمة، وقد ساهمت ريشة رسامي الكاريكاتير في هذه الحملة، فركزت على رجالات الإسلام وعلمائه، فالعلامة الشيخ (حسنين مخلوف) كانت الكاريكاتيرات التي تقصده

وتلمزه، تُطلق عليه اسم الشيخ متلوف، وقد رسم في إحدى المرات أحد الشيوخ في موقف غير لائق بين راقصات يشاركهن الرقص، ليوحي للقارىء جملةً من الإيحاءات السلبية ضد الدين ومن يدعون إليه أو يرتبطون به.

كما صدر في فترة من الفترات ملحق كاريكاتيري لإحدى المجلات الدينية! يصور الدعاة مجرمين أعوانًا للشيطان وقتلة سفاحين متصلين بالأعداء والقوى الأجنبية، ومخلفات تلك المرحلة لا تزال في أفلام السينما حين تصور الشيخ أو المأذون أو المتدين أو رجل الطريقة.. إلخ.. مأفونًا من المأفونين، غريبًا عن الحياة والناس، حتى في طريقته في الكلام وملابسه وحركاته وشكله."()

لا أعرف كيف ينسب هذا الفكر للإسلام؟ ولا أدري كيف تُلصق به هذه الآراء الغريبة التي يجعلها أصحابها أساس عقيدته وصلب تعاليمه، وهي التي لم تكن في سلوك الصحابة الأماجد، والتابعين الكرام، وعلماء الأمة العظام، على مر تاريخها الرشيد.!

لقد كان رسولنا الكريم ﷺ هو المحرر الأعظم الذي لم تعرف الدنيا مثله في حجمه وقدره هدمًا للعبودية وتسلطًا على القهر والاستبداد.. كان عدوًا للظالمين، سيفًا على الطاغين، داعية للثورة على كل طاغية جبار، لقد قال يومًا لأصحابه: (أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر أو أمير جائر)[٢] وقال يومًا: «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»[٣]

() –الاشاعة للدكتور أحمد نوفل . ط دار الفرقان

٢ - أورد أبو داود حديث أبي سعيد الخدري ﷺ

٣ - السلسلة الصحيحة

هكذا كان رسولنا العظيم ﷺ جاء لتحرير الدنيا، وأرسله الله رحمة للعالمين، ولو تأملنا لفظ الرحمة لعرفنا أن الرسول الكريم لا يمكن أبدًا أن يقبل بأي صورة من صور الظلم والقهر والكبت وإهدار الحقوق، كما ينسب إليه بعضهم بتأويلات خاطئة وظنون معوجة.! إن الصمت والانبطاح والتبعية والتخاذل والخرس والانزواء أمام حاكم ضال ظالم جبار طائش، يحل الحرام ويحرم الحلال ينهب حقوق الأمة وثرواتها، ويسرق قوت الرعية ورزقها، يوالي أعداء الله ويحارب أولياء الله، ويُمكن للصوص والخونة ويمنع أهل النزاهة والشرف.. إنما هي أخلاق مردودة وجبن غير مقبول.

من أين أتى هذا الصمت ومن قال به في تاريخ أمتنا الثائر؟! ألا إن الاستسلام للظلم تحت دعوى طاعة ولي الأمر، ليس من أخلاق الإسلام، ومن يدعي فريتها لم يفهم ما قرأ من نصوص خاصة في أوقات خاصة بظروف خاصة.. ولم يعي مغزاها والغاية منها.. أما الصمت والاستسلام فإنه يُمكّن للظلم، وينمي الجور، ويغذي حكم الطغاة المستبدين.!

أيعقل أن يكون هذا الانبطاح منتسبًا لدين جاء لتحرير الإنسان وقمع هياكل الظلمة وطمس ألوان العبودية.. دين ذمت تعاليمه وأخلاقه كل صور الظلم وأشكال القهر والتجبر والجور؟!

حتى أن كبار الأئمة الذين استشهدوا بها واجتهدوا فيها، كانوا هم أول من وقف في وجه الظلم والخطأ والانحراف وتصدوا لأولي الأمر المتجبرين وواجهوهم بشراسة حازمة وصمود أسطوري لا هوادة فيه..

كثير من المفاهيم المعوجة الخاطئة أصابت أذهان أمتنا وشوهت عقول أبنائها.. إنهم يستنكرون ويتعجبون إن رأوا متدينًا يعمل بالسياسة، أو عالم دين يتكلم في شؤونها، أو يشارك في ملاحمها وصراعاتها، ويواجه قادتها ويزاحم أحزابها.. وهو تصور سخيف وضيع لم يصغه الإسلام وزعيمه ﷺ..

وإنما جلبه الاستعمار، وساهم في رسم صورته ذيوله من عملاء الإعلام وبقايا الماركسيين والشيوعيين.!

وهي صورة أبعد ما تكون عن صورة العالم الحقيقي، الذي يرتضيه الإسلام، الذي يوجهه ليكون راعيًا للأمة ووليًا لأمرها، وساعيًا في قضاء مصالح أبنائها، حاميًا لهم مدافعًا عنهم فيما يقع عليهم ويصيبهم من جور الحكام وعسف السلطان..

لقد تأصلت هذه الرؤى المعوجة في كثير من الأفهام والأذهان، إلى حد كبير يعيا معه من يريد تصحيحها ورد هرائها.. إن الشيخ له صورة معلومة في حياتنا ومحيطنا الذي نعيش فيه، فهو ذلك الشيخ المسالم الطيب الهادئ الذي إن ضرب على خده الأيمن أدار خده الأيسر، ولا مانع من أن يكون في أحيان أخرى درويشًا يأكل الفتة ويهذي بكلام البُله والمجانين.. إنه ذلك الشيخ الذي لا يتكلم إلا في السلام والأمان والإحسان وأحكام الوضوء وفرائض الغسل.. وتكون جل مهمته في تعليم الناس هذه الأحكام والمسائل الفقهية.. أما أن يوجههم لطريق مصالحهم، ويفتي في شؤون الدنيا والحكم في سياستها، أما أن يتكلم في ثورة ومعارضة، أو ينتقد حكما أو قرارا أو نظاما أو مؤسسة من مؤسسات الدولة، فهو أمر غير مقبول أو مستساغ.!

لقد تعارف الناس في حياتنا المعاصرة على صورة الشيخ بأنه هو ذلك الرجل المعمم الهادئ المستكين الهزيل الضعيف الذي يتكلم في فقه الغسل والطهارة ويتصور أن الفقه هو العلم وهو الدين، وهو الطريق المستقيم، الذي يوصل للجنة دون ما عداه، فإذا تعلمته وعلمته للناس، فقد أديت ما عليك دون أن يكون لك اهتمام آخر بمصالح الأمة وسياستها التي تقوم عليها، وتوجه مصيرها ومستقبلها، ومن ثم فليس من الدين أن تتدخل في السياسة، وليس من الدين أن تخالف الحاكم ولو كان ظالمًا وليس من الدين أن تناطح

المستبدين فيما يشتهون وليس من الدين أن تقول لا لكل قرار أو توجه لا يعجبك، أو لا يتو افق مع مبادئك ومنهجك، و يا له من فهم غريب ليس من الاسلام في شيء.!

ولقد أحببنا في هذه السطور أن نُعيد هذه السيرة ونحيي هذه الذكرى عساها تكون دعوة ونبتًا يقوم في أرضنا من جديد.

وهب نفسه فداء للحق!

نحكي هنا نبأ هذه الأمة المؤمنة، التي تحدت إرادة الطاغية وأذلت كبرياءه، ولم يكن قائدها زعيمًا سياسيًا، أو ناشطًا حزبيًا أو طالبًا لملك أو طامعًا في سلطان.! وإنما كان داعية يدعو لدين الله ويُرشد الناس إلى نوره وهديه.. كافرًا بدين الحاكم الغشوم، الذي لم يجد غير القتل ليسكت به صوت الحق، ويطفئ به بوارق الإيمان.. لتظل هذه القصة، ويظل رائدها، مثلا وقدوة لطلاب الحرية وعشاق الحقيقة يصرخون بندائها.. في وجه الظلمة المستبدين.!

إنهم أصحاب الأخدود الذين قص الله تعالى نبأهم في كتابة الكريم فقال تعالى :

(قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ *إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ *)[1]

فكيف كان النبأ؟ وكيف بدأت الأحداث؟

ها هي السنة المطهرة تحكي لنا نبأ هذه الملحمة العظيمة، والسبب المباشر الذي تفجرت به بواعث الإيمان في القلوب على يد الغلام الداعية.!

روى الإمام أحمد ومسلم قال رسول الله ﷺ: (كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت، فابعث إلي غلامًا أعلمه السحر، فبعث إليه غلامًا يعلمه، فكان في طريقه إذا سلك راهب فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد

[1] - سورة البروج :٤-٩

إليه، فإذا أتى الساحر ضربه فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر، فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر.

فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجرًا، فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة؛ حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها، ومضى الناس فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم أفضل مني؛ قد بلغ من أمرك ما أرى، و إنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل علي، وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويُداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك - كان قد عمي - فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما ههنا لك أجمع إن أنت شفيتني، فقال: إني لا أشفي أحدًا! إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله، دعوت الله فشفاك؟ فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟ قال: ربي، قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله! فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجئ بالغلام، فقال له الملك: أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل؟! فقال: إني لا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله، فأخذه فلم يزل يعذبه، حتى دل على الراهب، فجئ بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى. فدعا بالمئشار فوضع المئشار على مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فوضع المئشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته؛ فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه. فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم! اكفنيهم بما شئت. فرجف بهم الجبل؛ فسقطوا. وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟

قال: كفانيهم الله! فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور، فتوسطوا به البحر؛ فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به فقال: اللهم! اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله! فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهمًا من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني؛ فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهما من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صدغه فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات. فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام.

فأتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك؛ قد آمن الناس، فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخدت، وأضرم النيران وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها، أو قيل له: اقتحم، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه! اصبري؛ فإنك على الحق)

لقد حمل الغلام على عاتقه عبء الدعوة ومسؤولية تبليغها إلى الناس وهدايتهم إلى الله تعالى، واستطاع أن يقود المجتمع كله إلى غايته ومقصده، وأن يزلزل عرش الملك الطاغية، ويهدم صلفه وغروره بما كان يملك من عناصر الإيمان والتوكل والشجاعة والجرأة والمضاء، فلم يعرف الخوف إلى قلبه طريقًا أمام الوعيد والتهديد، ولم يصرعه الجُبن فيخلي الساحة للباطل يعلو فيها على الحق، ويُعربد في الدنيا كيفما شاء، لقد قاوم إلى آخر نفس في

حياته مستعينًا مستقويًا بربه القوي الغالب، الذي أيده ونصره على الطاغية، فكانت هذه الصلابة الأخاذة وكان هذا التحدي المذهل.!

لقد ضحى الغلام الداعية بنفسه وجاد بها من أجل الناس، ومن أجل هدايتهم وسعادتهم وحريتهم، وهي نفس الروح التي كان زعماء أمتنا وعلمائها الأبرار يتحركون بها ويناضلون بعزمها، حينما كانوا يجودون براحتهم وأمنهم وحياتهم من أجل الناس.. لأن ذلك العناء هو ضريبة القيادة الحقيقة، التي لا تمنحها الادعاءات والطنطنات والأصوات العالية والمظاهر الكاذبة وإنما تمنحها مواقف الحسم ولحظات الجد والإقدام.. لقد كانوا يرمون بأنفسهم في عرين الأسود العاتية غير هيابين حدة أنيابهم أو رعد زئيرهم.. لقد انتصر الفتى الداعية الذي قاد الأمة إلى نور الحق، وآمن الناس بدعوته حينما رأوا صدقه وحسن بلاءه، ونزاله لأرباب الباطل، وتحديه لوحشية السلطان.

لقد سجل القرآن العظيم هذه المحنة الرهيبة محنة أصحاب الأخدود، وسجلت السنة الشريفة، صورة القيادة المؤمنة الفائية الصادقة، التي قادت فكر الأمة وردتها لمعالم الفطرة وبصرتها بطريق الحق والهداية، لتكون أعظم مثال يحتذيه علماء الإسلام ودعاته الصادقون في نصرة الحق ونزال الطغاة المتعالين.. لقد رسمت لهم هذه الصورة كيف يكونون حينما يعلو صوت الباطل على صوت الحق؟ فيتحولون أسودًا ضواري، وجبالاً شامخات، أمام كل جبار يفسد في الأرض، ويتعالى على الخلق، ولا يرى إلا رأيه، ولا يؤمن إلا بذاته؟! بل يتحولون إلى ثورة على الظلم، ومطرقة تهوي على رأس الطغاة.

يتحدى رأس الدولة!

من عادة الساسة والمستبدين أن يحرصوا كل الحرص على ضم العلماء الذين لا ضمير لهم في صفوفهم، حتى يجذبوا الناس إليهم، ويظهروا لهم أنهم على الحق، وأن العلماء في جنابهم يؤيدونهم ويقرونهم فيما يذهبون إليه من سياسات باطلة وأحكام جائرة..

وأمثال هؤلاء الذين صاروا مطية في ركاب الساسة، وحذاءً في أقدامهم يوجهونه حيث يريدون من مواطن الإفك والزيف والافتراء.! هؤلاء هم أحقر الناس وأشرهم وأخبثهم.. لأنهم يخدعون الجماهير بما يُظهرون من العلم والتمسح بلباس الدين.. ويضلون الشعوب بما يعلنون من الورع المزيف والتقوى الخادعة.. وتأبى حقيقتهم السافلة إلا أن تُرضي أربابهم وسادتهم على حساب الحق والحقيقة.. وتُعلي قولهم على قول الله ورسوله ! ولعل هذه العناصر اللعينة من علماء السوء، تكثر نماذجهم في عصرنا الحاضر، فنشاهد أحدهم يخاطب الناس مرتديًا عمامة الإسلام وعباءة شيخ الإسلام، وهو في حقيقته أفاك ضال مضل يُحل الحرام ويحرم الحلال، ويحارب أهل الله، ويقف عقبة في وجه الحق وأهله، نصيرًا للباطل ومؤيدًا حزبه..

وإذا كان حكام الزمان قد وجدوا الكثير من أمثال هؤلاء، فإن عبد الملك بن مروان قديمًا عمد في موقف مشابه إلى سيد التابعين (سعيد بن المسيب) ليضمه إلى حاشيته، ويجعل منه لسانًا من ألسنته، ليقنع الناس بما يريد ويأطرهم على طاعته، ويلزمهم بأمره.. ورغم ذكاء عبد الملك ودهائه الفريد، إلا أنه لم يحسن الاختيار والتقييم حينما عمد لابن المسيب، ظنًا منه أنه يمكن أن يكون من أهل الدنيا والراغبين فيها والطامعين في غرورها.!

فيضعف أمام العطاء، ويسيل لعابه بما يمنحه من هبات وعطاءات وامتيازات، ويهرول نزولاً على رغبة الحاكمين الكبار.. ولكن.. كيف يمكن لسعيد أن يكون من أهل الدنيا، وهو التقي النقي العابد الزاهد الذي قال يومًا : (إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحذروا منه فإنه لص.!) وقال يوم أن دُعي إلى نيف وثلاثين ألف ليأخذها: لا حاجة لي فيها ولا في بني مروان حتى ألقى الله تعالى فيحكم بيني وبينهم.؟!

وإذا كان سعيد لا يُغريه والمال لا يطويه، فليكن أسلوب آخر لعله يخضع به أو يلين.. لقد تقدم إليه عبد الملك يخطب ابنته لولده الوليد حين جعله وليًا للعهد، لكنه ﷺ رفض هذه المصاهرة وفر منها، حتى لا يركن و ابنته إلى الدنيا وأهلها.. رفض هذا النسب لأعلى رتبة في الدولة، رأسها الكبير وحاكمها المطاع، لأنه الأبي العزيز الذي يُبغض مظاهر الجاه وكبرياء السلطان، رفضه وهو يعلم ما قد يجره الرفض عليه من عنت و إيذاء.. لكنه لم يكن ليخاف أو يضعف.. لأن العلم الذي حمله بين ضلوعهن علمَهُ أن لا يخاف غير الله سبحانه.. فكان يتحرك في قوة.. ويتكلم في عزة.. ويصدح بالحق في شموخ و إباء.. و انطلق سريعًا ليزوج فتاته من (أبي وداعة) مجرد طالب علم فقير.! فضّله وميزه على ولي عهد الخلافة وملك المستقبل.!

ولم يكن لعبد الملك أن يسكت على ما حدث أو يستكين أمام هذا الرفض الذي يعد إهانة كبيرة لشخصه.. فجاءت ساعة المحنة ولحظة الابتلاء التي صمد فيها سعيد صمود الجبال، فلم تخر عزيمته أو ينخلع فؤاده حتى ضرب أروع الأمثلة في الصبر والثبات الذي أذهل خصومه وأعيا قرائحهم.!

لقد رفض سعيد أن يُعلن البيعة للوليد وأخيه سليمان ولدي عبد الملك، لأنها في نظره لم تعد بيعة لخلافة راشدة بإجماع الأمة ورضاها، و إنما صارت ملكًا عضودًا يُجبر الناس عليه بالسيف، ولما أُبلغ عبد الملك برفضه وتعنته.. أمر واليه على المدينة أن يُرهبه على السيف ويجلده خمسين جلدة، ويطوف به في أسواق المدينة.. و لما جاء الكتاب أسرع إليه بعضهم ليحذره من هذا الوعيد والهول الذي ينتظره والذي قد يفضي بذهاب حياته، ويعرض عليه أمورًا أملاها عليه والي المدينة وخيره فيها حتى يتجنبوا هذه الفتنة، وهذا الصدام وهي: أن يسكت حينما يقرأ الوالي كتاب البيعة، فلا يقول نعم أو لا، أو أن يظل في بيته ولا يأتي المسجد حتى تنتهي البيعة، أو أن ينتقل من مكانه بالمسجد فلا يشهد شيئًا.. و انتظر الجميع جواب سعيد عله يجيب واحدة من هذه الثلاث، ويرضى بها فيرحم نفسه ويوفر عليهم عناء التحدي وشطط المواجهة، ولكن سعيدًا يُصر على رفض كل الخيارات التي لا تمثل إلا حقيقة واحدة، وهي العجز والتحايل والتخاذل والهروب من الحق، فقال لمحدثه: إني أخشى أن أصمت فيظن الناس رضاي ببيعتكم، كما أنني لا أقدر على سماع الأذان ولا ألبيه، ولا أرضى لنفسي أن أنتقل من مكاني في المسجد خوفًا من مخلوق.!

ولم يجد والي المدينة أمام هذا الرفض العنيد العتيد إلا أن ينفذ أمر الخليفة، فجردوه من ثيابه وضربوه (٥٠) سوطًا وطافوا به في أسواق المدينة، وقال له بعضهم جهلاً وشماتة واستهزاء: هذا مقام الخزي! فكان رده الحديدي على هذه الحماقة: بل من مقام الخزي فررنا.!

وتنتهي المحنة بانتصاره عليهم بعد أن أعياهم صموده، ولم يزده التعذيب الا إصرارًا على مبادئه وتمسكًا بر أيه.. ويشعر عبد الملك بالندم، فيقدم يومًا للمدينة، ويقف على باب المسجد، ويرسل رجلاً يدعو سعيد بن

المسيب، فذهب الرجل وقال له: إن أمير المؤمنين بالخارج يُريد رؤيتك، فقال سعيد: مالي إليه من حاجة وما به حاجة إلي، فرجع الرسول وأخبر عبد الملك فقال له: قل له: إن أمير المؤمنين يريدك، فكرر سعيد قوله، ولما رأى الحرج باديًا على الرسول قال له: يابُني اذهب فإن كان يريد خيرًا فهو لك، وإن كان يريد شرًا فليقض ما هو قاض، ويرجع الرسول بالإجابة المحرجة، التي لم يجد عبدالملك حيالها إلا أن يصمت ويكظم غيظه، لأنه يعرف قدر الرجل ومقامه بين الناس، الذين يريد أن يرتكب فعلاً آخر يزيد من سخطهم عليه ..

كان سعيد رضي الله عنه من أعلام التابعين الذين ضلعوا في العلم والفقه بأحكام الشريعة.. شهد له بذلك العارفون السابقون فكان عبد الله بن عمر إذا سئل مسألة أُشكلت عليه يقول: سلوا سعيدًا فإنه جالس الصالحين..

وقال علي بن الحسن: سعيد بن المسيب أعلم الناس بما تقدم من الآثار و أفقهم في زمانه

وقال قتادة: ما رأيت أعلم بالحلال والحرام منه

وقال مكحول: طفت الأرض فما وجدت أعلم منه.. وكان الأئمة الأربعة الكبار يتناولون فتاويه ويأخذون بأقواله.. لقد كانت معالم الإباء واضحة أصيلة في نفس سعيد، وهي التي لا يعيينا البحث عن أسبابها حينما نعلم أنه رضي الله عنه تلقى العلم من أفذاذ الصحابة و أبطال الإسلام الأول.. فسمع من علي بن أبي طالب و ابن عمر و ابن عباس و أبي الدرداء و أبي هريرة وأم المؤمنين عائشة.. وهؤلاء كلهم ما كان لهم أن يعلموا العلم مجردًا مبتورًا، أو يلقنوه جافًا فاترًا، وإنما يلقنون في روع المتعلم شمائل الفروسية، وما تضمه من عناصر الإباء والشمم، التي تؤهله ليكون عالمًا قائدًا في حياة الناس، يدفع عنهم أذى الدنيا، كما يدفع عنهم بهديه أذى الآخرة.

وأبى ﷺ أن تطوي صفحة حياته، حتى يكتب نفسه في سجل المجاهدين، فقد كان المجاهد الذى لا يُقعده عجز أو مرض.. وكان إذا سمع منادى الجهاد يحمل متاعه ويخرج وقد ذهبت إحدى عينيه.!

فيقال له: "إنك عليل" فيرد قائلا: "استنفر الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكنني القتال، كثّرت سواد المسلمين وحفظت المتاع".

مالي ولسعيد بن جبير؟!

نحكي الآن حكاية عالم وطاغية! أو سيرة عالم وقف في وجه طاغية جبار.! لم يُرعده بطشه وجبروته أن يصمد أمامه ويواجه طغيانه.. إنه التابعي الجليل (سعيد بن جبير) الذي تعلم العلم وتلقاه على يد الصحابة الأجلاء، ورى عنهم وأخذ عن حبر الأمة بن عباس وكان من تلامذته النابهين، كما سمع من أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وعدي بن حاتم و أبي هريرة و أبي موسى الأشعري وغيرهم من الصحابة الكرام.. الذين تعلم منهم العزة والشموخ والإباء كما تعلم منهم العلم والإيمان واليقين.

كان سعيد بن جبير صوامًا قوامًا عابدًا قانتًا، يحب القرآن ويدمن قراءته ويختمه بين الحين والحين، وكان لا يفارقه ذكر الموت ويقول: لو فارق ذكر الموت قلبي لخشيت أن يُفسد علي قلبي.. أما علمه فقد وصفه (خصيف) بقوله: كان أعلمهم بالقرآن مجاهد وأعلمهم بالحج عطاء وأعلمهم بالحلال والحرام طاووس وأعلمهم بالطلاق سعيد بن المسيب، وأجمعهم لهذه العلوم سعيد بن جبير، ويقول فيه (ميمون بن مهران): لقد مات سعيد بن جبير وما على ظهر الأرض رجل إلا يحتاج إلى سعيد، وقال عنه الإمامُ أحمد بن حنبل: (لقد قتل سعيد بن جبير، وما على الأرض أحد، إلا ومحتاج إلى علمه.. وكان ابن عباس إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه يقول: أليس فيكم ابن أم الدهماء؟ يعني سعيد بن جبير.. وجاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن فريضة فقال: ائت سعيد بن جبير، فإنه أعلم بالحساب مني وهو يفرض منها ما أفرض، ودأَب سعيد على شدِّ رحاله إلى بيت الله الحرام كل عام مرتين، مرةً في رجب محرِماً بعمره، وأخرى في ذي القعدة محرِماً بحج، وقد كان طلاب العلم والخير والبِرّ

والنصح يتوافدون على الكوفة، لينهلوا من مناهله العذبة، ويغترفوا من هديه القويم..

هذا هو سعيد بن جبير وهذه هي مكانته الشاهقة ومقامه الكبير.. أما الطاغية، فإنه الحجاج بن يوسف وما أدراك ما الحجاج بن يوسف فهو الذي لم تعرف أمتنا العربية والإسلامية منذ مطلع الدعوة طاغية أسرف في سفك الدماء وغالى في الظلم والجور مثل ما عرفت من الحجاج بن يوسف، ذلك العتي الذي لم يكن يعرف غير السيف حكمًا وقطع الرقاب عقابا ضد كل من عارضه أو خالفه، فكانت الدماء أهون شيء لديه، وكان الأمر بالقتل أجرى الأقوال على لسانه.. كان فظًا غليظًا سفاحًا قاسيًا، وقال فيه عمر بن عبد العزيز: لو جاءت كل أمة بخبيثها وجئنا بالحجاج لغلبناهم، وقال فيه هشام بن حسان: أحصوا ما قتل الحجاج صبرًا فبلغ مائة وعشرين ألف قتيل، وقال الذهبي : (كان ظلوما جبارًا ناصبيًا سفاكًا للدماء ..نَسبُه ولا نحبه بل نُبغضه في الله فإن ذلك من أوثق عرى الإيمان وله حسنات مغمورة في بحر سيئاته)

وعن قتادة قال: قيل لسعيد بن جبير: خرجت على الحجاج؟ قال: إني والله ما خرجت عليه حتى كفر.

وقال الأعمش: اختلفوا في الحجاج فسألوا مجاهدا فقال: تسألون عن الشيخ الكافر.

وقال الشعبي: الحجاج مؤمن بالجبت والطاغوت كافر بالله العظيم.

وقال القاسم بن مخيمرة: كان الحجاج ينقض عرى الإسلام.

وعن عاصم بن أبي النجود قال: ما بقيت لله تعالى حرمة إلا وقد انتهكها الحجاج

وعن أبي حنيفة عن حماد قال: بشرت إبراهيم بموت الحجاج فسجد ور أيته يبكي من الفرح.!

ولك أن تتخيل حجم هذا الطغيان الذي يدفع عالمًا نجيبًا كإبراهيم النخعي للسجود والبكاء من الفرح؟!

وقال ابن كثير في البداية والنهاية: (كان ناصبيًا يبغض عليًا وشيعته في هوى آل مروان بني أمية، وكان جبارًا عنيدًا، مقدامًا على سفك الدماء بأدنى شبهة، وقد روي عنه ألفاظ بشعة شنيعة ظاهرها الكفر.!)

كل هذه الشهادات التي قدمها الأئمة وأدلى بها العلماء.. حاولت وصف ما كان عليه أشهر طغاة العرب الظالمين، الذين لم تعرف قلوبهم الرحمة ولم تعرف أنفسهم شبعًا من إراقة الدماء البريئة الطاهرة.. وقد كانت لهذا الطاغية قصة مؤلمة مع علم التابعين سعيد بن جبير، الذي كان ضحية لجوره وظلمه وطغيانه.. لكنه رغم تجبر الحجاج وعسفه وتهديده ووعيده وبطشه الأكيد.. لم يكن ليخضع أو يخنع، أو يزل وينكسر، أو يلاين ويهادن.. فقد كان صداحا بالحق لا يخشى في الله لومة لائم.. فانطلق في تحديه غير هياب للموت الذي يزلف من عين السفاح ولسانه.. وكانت الملحمة، وكانت المواجهة، وكان حكم الطاغية الغادر بإعدام العالم الشهيد.. وقبل ذلك كله كان التحدي وكانت العزة وكان الإباء، وكان الرفض والسخط والثورة على ظلم الباغي وجوره.!

كان سبب العداء بين الحجاج وابن جبير، أن الأخير كان من هؤلاء العلماء والفقهاء الذين أيدوا وساندوا عبد الرحمن بن الأشعث أحد قواد الحجاج في خروجه وانقلابه عليه.. لقد أوشك أن ينتصر عبد الرحمن وتكتب له الغلبة، إلا أن النصر في النهاية كان حليفًا للسفاح العتي، ولم يكن أمام ابن الأشعث إلا أن يفر وأعلن جيشه الاستسلام.. فنادى فيهم الحجاج:

أن يشهد الرجل منهم على نفسه بالكفر، ثم يُعلن التوبة ويبايع، وإلا قطع عنقه ..وما كان لابن جبير ﷺ أن يبايع طاغية، أو أن يشهد على نفسه بالكفر، ففر من قبضته، وأخذ يتنقل من بلد إلى بلد، مدة عشر سنوات، حتى استقر به المقام في إحدى قرى مكة متخفيًا، ورغم مرور هذه السنوات الطوال إلا أن الطاغية الجبار كان يمتلئ غيظًا منه، ويتمنى لو أمسك به، حتى يروي ظمأ غيظه، ويشفي منه غليله الذي لا يشفى أبدًا، وكانت عيونه لا تكل ولا تمل في بحثها والتنقيب عنه في كل مكان.. حتى تولى على مكة خالد القسري، الذي استطاع القبض على العالم الفقيه، بعد أن مل الفرار، وقرر أن يبقى حتى يلقى ما قدره الله له.. و أفلح القسري في القبض عليه، وساقه مكبلاً للحجاج في مدينة واسط، وتلفت ابن جبير لأصحابه قائلاً لهم: ما أراني إلا مقتولاً على يد هذا الظالم، فلما صار عنده، نظر إليه في حقد، وقال: ما اسمك؟ قال: سعيد بن جبير، فقال: بل شقي بن كسير، فقال سعيد: بل كانت أُمِّي أعلمَ باسمي منك، قال: ما تقول في محمد؟ قال: تعني محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، قال: نعم، قال: سيد ولد آدم، النبي المصطفى، خير من بقي من البشر، وخير من مضى، حمل الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح لله، ولكتابه، ولعامة المسلمين، وخاصتهم.

قال: فما تقول في أبي بكر؟ قال: هو الصديق خليفة رسول الله، ذهب حميداً، وعاش سعيداً، ومضى على منهاج النبي صلوات الله وسلامه عليه، لم يغيّر، ولم يبدل.

قال: فما تقول في عمر؟ قال: هو الفاروق الذي فرّق الله به بين الحق والباطل، وخيرة الله من خلقه، وخيرة رسوله، ولقد مضى على منهاج صاحبَيْه، فعاش حميداً، وقتل شهيداً.

قال: فما تقول في عثمان؟ قال: هو المجهّزُ لجيش العسرة، الحافرُ لبئر رومة، المشتري لبيت لنفسه في الجنة، صهر رسول الله ﷺ على ابنتيه، ولقد زوَّجه النبي بوحي من السماء، وهو المقتول ظلماً.

قال: فما تقول في عليّ؟ قال: ابن عم رسول الله، وأول من أسلم من الفتيان، وهو زوج فاطمة البتول، و أبو الحسن والحسين، سيدي شباب أهل الجنة.

قال: فأي خلفاء بني أمية أعجب لك؟ قال: أرضاهم لخالقهم، قال: فأيُّهم أرضى للخالق؟ قال: علمُ ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم.

قال: فما تقول فيَّ؟ قال: أنت أعلم بنفسك، قال: بل أريد علمك أنت، قال: إذًا يسوءك ولا يسرك، قال: لا بد من أن أسمع منك، قال: إني لأَعْلَمُ أنك مخالف لكتاب الله تعالى، تُقدِم على أمور تريد منها الهيبة، وهي تقحمك الهلَكَةَ، وتدفعك إلى النار دفعاً، قال: أمَا واللهِ لأقتلنك، قال: إذاً تفسد عليَّ دنياي، و أفسد عليك آخرتك، قال: اختر لنفسك أي قتلة شئت، قال: بل اخترها أنت لنفسك يا حجّاج، فو الله ما تقتلني قتلة، إلا وقتَلك اللهُ مثلها في الآخرة، قال: أتريد أن أعفوَ عنك، قال: إن كان العفو فمن الله تعالى، أمّا أنت فلا أريده منك، فاغتاظ الحجاج، وقال: السيف والنطع يا غلام، فتبَسَّم سعيد، فقال له الحجاج: وما تبسُّمك؟ قال: عجبت من جرأتك على الله، وحلم الله عليك، قال: اقتله يا غلام، فاستقبل القبلة، وقال:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1]

قال: حرِّفوه عن القبلة، فقال:﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[1]

---

[1] ـ الأنعام الآية: ٧٩

قال: كبُّوه على الأرض، فقال:﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾[2]

قال: اذبحوا عدو الله، فما رأيت رجلاً أَدْعَى منه لآيات القرآن الكريم، فرفع سعيد كفَّيه، وقال: اللهم لا تسلِّط الحجاجَ على أحد بعدي.

قال: فلم يمضِ على مصرع سعيد بن جبير غير خمسة عشر يوماً، حتى حمَّ الحجاج، واشتدت عليه وطأةُ المرض، فكان يغفو ساعة ويفيق أخرى، فإذا غفا غفوة، استيقظ مذعوراً، وهو يصيح: هذا سعيد بن جبير آخذ بخناقي، هذا سعيد بن جبير، يقول: فيمَ قتلتني؟ ثم يبكي، ويقول: مالي ولسعيد جبير؟ ردّوا عني سعيد بن جبير.

فلما قضى نحبه، ووري في ترابه، رآهم بعضهم في الحلم، فقال له: ما فعل الله بك فيمن قتلهم يا حجاج؟ قال: قتلني اللهُ بكل امرئ قتلة واحدة، وقتلني بسعيد بن جبير سبعين قتلة)[3].

---

[1] ـ البقرة الآية: ١١٥

[2] ـ سورة طه الآية: ٥٥

[3] ـ سيرة التابعين – محمد راتب النابلسي

غيلان.. شهيد الحرية

نحن الآن مع داعية من دعاة الحرية.. ولسانًا من ألسنتها المدوية، إنه غيلان الدمشقي أحد الدعاة إلى الله، والوعاظ الفقهاء الذين بلغ بهم العلم مبلغًا فكريًا كبيرًا.. ففي عهد الخلافة الأموية، وفي زمن الخلفاء المستبدين، الذين تولوا أمر الأمة بالوراثة والتسلط والقهر والسيف.. خرج هذا الصوت الحر القوي العالي، ليجهر في وجوههم بالحق، ويؤرق عروشهم بصرخاته الجريئة الصريحة.. نادى بحرية الإنسان، فهو مختار في تصرفاته وصانع لأفعاله.. ومن هذه الوجهة انطلق في جهاده ضد الجبرية ودعاتها ومنتحليها وكل من ينسب الخطأ والظلم للخالق سبحانه، ليبرئ الإنسان الذي اقترف الفعل.. وكانت السلطة في ذلك الوقت سلطة الأمويين.. يروق لها بعض هذه الأفكار، حتى تبرر ظلمها للعباد، وبطشها بالرعية، وقهرها للأمة، حتى تتحجج في النهاية، بأن ما حدث ويحدث، إنما هو بإرادة الله تعالى وليس للإنسان دخل فيه.. فيصمت الناس ويرضون بما وقع عليهم من ظلم، لأنه حكم الله كما يظنون.! وهذه دعاوى يشجعها عشاق الظلم والاستبداد، الذين يبحثون عن أي حُجة يخدعون بها الناس، ويبررون بها فعالهم القائمة على الغلبة والقهر.. ثم يستقطبون من حولهم، ومن يرونهم من علماء السوء الخونة لدينهم وعلمهم، ليقوموا بهذه المهمة الخسيسة.. مهمة تخدير الأمة وتسكين الجماهير بخطابهم الديني المزيف، الذي يبرأ منه الإسلام العظيم.. دين الثورة والحرية.!

إن القرآن الكريم رفض هذا المنطق الجبري و أقام على أصحابه الحجة فالله تعالى يقول: (كل نفس بما كسبت رهينة) ويقول: (ولا تزوا وازرة وزر أخرى) ويقول: (جزاء بما كانوا يعملون) ويقول: (جزاء بما كانوا يكسبون).. ويقول: (ذلك جزيناهم ببغيهم) [1] فكل فعل يُسأل عنه صاحبه ويتحمل المسؤولية فيه وعنه ..! لقد كان غيلان لا يخشى في الحق لومة لائم، وكان ثورة بمعنى الكلمة، ثورة على الظلم، ثورة على الفساد، ثورة على الجمود والتخلف.. كان يرمي بكلمة الحق في وجه السلطة الظالمة، ويطلقها في وجه كل من يقف خلفهم من العلماء المضللين.. فلا يمكن أن يقوم هؤلاء بظلم الناس وقهرهم وسرقة قوتهم، ثم يدعون أن الله تعالى هو الذي أراد ذلك الظلم وقرره.! ولعمري فهذا تطاول خبيث على مقام الألوهية العظيم، بل أبشع أنواع الافتيات على الله تعالى، الذي يحرم الظلم ولا يرضى به.. ومثل هذه الدعوات التي تناصر الحرية وتدعو إلى محاسبة الحكام.. تُثير الفزع في نفوس المتسلطين المستبدين الظالمين من الملوك والسلاطين، وتقض مضاجعهم، وتجعلهم يشعرون بالخطر الكبير على عروشهم.!

وحينما جاء عمر بن عبد العزيز للسلطة وتولى الخلافة، بسط يده لجميع مخالفيه وحاورهم، وكان منهم غيلان الذي سمع عمر عن نزاهته وتقواه وورعه وجهره بالحق، فناقشه ودار بينهما حوار حول بعض المفاهيم، فلما استشعر عمر تقواه وورعه، طلب منه أن يعينه على تأدية أمانته في حكم المسلمين، فقال له غيلان: ولني بيع المظالم التي ترجع لأعمامك وآبائك وأجدادك، تردها وتبيعها لتكون في بيت مال المسلمين.. فأطلق عمر يده في ذلك.. فوقف في السوق وهو يبيع ممتلكات أمراء بني أمية، فكان ينادي عليها بقوله: "هلموا إلى متاع الخونة ".

---

(1) الأنعام:١٤٦

ونادى على جوارب خز قد تآكلت بلغت قيمتها ثلاثين ألفاً، فقال: " من عذيري ممن يزعم أن هؤلاء أئمة عدل؟ قد تآكلت هذه الجوارب في خزائنهم، والفقراء والمساكين يموتون جوعًا".. فهم الظلمة ومن دافع عنهم من الظلمة.! ويمر في السوق هشام بن عبد الملك فيقول: إن هذا ليعيبني ويعيب آبائي.. والله لإن أمكنني الله منه، لأقطعن يديه ورجليه.. ويموت عمر بن عبد العزيز، ويأتي عهد هشام فبعث إليه واستنطقه فقال: "أعوذ بجلال الله أن يأتمن الله خوانًا أو يستخلف خزانًا؛ إن أئمته هم القوامون بأحكامه، الراهبون لمقامه؛ لا يول الله وثاباً على الفجور، ولا شراباً للخمور، ولا ركاباً للمحظور" ثم يهرب مع صاحبه صالح إلى أرمينية، ويقبض عليهما، ويرسل غيلان إلى هشام، لتدور مناظرة عنيفة بين الطرفين.. لم يتورع حينها غيلان أن يقول الحق في وجه المتجبر، في هذا الموقف العصيب، الذي قد يَرتجي رجل غيره سُبل الشفاعة والتذلل، ويطلب العفو والسماح.. لكن ما كان لهذه النفس الثائرة أن تعرف معنى التراجع والذلة والاستسلام.!

ولم يسلم غيلان الدمشقي من التكفير.. والادعاء كذبًا على رسول الله، فقد شاعت أحاديث مكذوبة مثل: "يكون في أمتي رجلان أحدهما وهب يهب الله له الحكمة والآخر غيلان فتنته على هذه الأمة أشد من فتنة الشيطان"[1] و مثل: " يكون في أمتي رجل يقال له غيلان هو أضر على أمتي من إبليس"[2] وغيرها من الأحاديث التي نسبت إلى الرسول بهتانًا وزورًا.

إن كثيرين من المنغلقين والسطحيين والحرفيين من أنصار التيارات السلفية التي تُناصر عقيدة ولي الأمر وتجعلها فوق عقيدة الله ورسوله.. ليزعمون أن غيلان زنديقٌ.! وهو أمر طبيعي أن يروج ذلك التشويه دعاة

---

(1) تاريخ دمشق لابن عساكر

(2) نفس المرجع

الحكام، وفقهاء السلاطين، والقائمين على مشروع تخدير الأمة، حتى يخفوا أثره الثائر، ويشوهوا سيرته الحرة، فلا يتسرب منها شيء إلى عقول المسلمين، أو تنتشر بينهم مثل دعوته التي تنادي بالحرية والوقوف في وجه الظلمة المستبدين.

ومن هنا نقول لهم: هل يُعقل أن يقوم الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز وخامس الخلفاء الراشدين، وبقية السلف الصالح، ومجدد الإسلام في قرنه الأول، فيجعل من عماله والقائمين على أحكامه زنديق ومنحرف؟! كيف لمثل هذه المنحرف أن يقوم على دين الله بالأمر المطلوب والأمانة الواجبة؟! وكيف يعتمد عليه عمر ليكون ركنًا ركينًا في ثورته الإصلاحية التي قام بها في بيت الحكم؟! أعتقد أنها مُفحمة، والرد مهما كان مبررًا سيمس عمر بن عبد العزيز، على الصورة التي يرسمها المتهمين لغيلان.

بل انظر لأبلغ من هذا.. وهو الكتاب الذي أرسله لعمر بن عبد العزيز في بداية عهده، حتى نعلم دين الرجل وتقواه ونزاهته، ونستطيع من جمله ومفرداته أن نجسد معالم شخصيته الراقية البعيدة عن الزندقة.. فكم في التاريخ من مظلومين، شُوهت حقيقتهم لأغراض سياسية ومصالح ذاتية.!

ففي جزء منه يقول لأشج بني أمية: أعلم يا عمر، أنّك أدركت من الإسلام خلقًا باليًا، ورسمًا عافيًا، فيا ميّتًا بين الأموات، لا ترى أثراً فتتبع، ولا تسمع صوتاً فتنتفع، طفئ أمر السنّة، وظهرت البدعة، أُخيف العالم فلا يتكلّم، ولا يعطى الجاهل فيسأل، وربّما نجحت الأُمة بالإمام، وربّما هلكت بالإمام، فانظر أيّ الإمامين أنت، فإنّه تعالى يقول: (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا..)[1] فهذا إمام هدى، ومن اتّبعه شريكان،

---

(1) الأنبياء : ٧٣

وأمّا الآخر: فقال تعالى (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ القِيَامَةِ لا يُنْصَرُونَ)[1]

أما مسألة القدرية وانتسابه لها فإنه (في خلافةُ: عمر بن عبد العزيز استطالت قاماتُ: القَدريين في مقابلِ فقهِ الجبر الأموي وبصورةٍ قلق معها شيوخ بني أمية، وبما أنّ عمر بن عبد العزيز يُعدُّ فيهم استثناءً، فلننظُر كيف كان تعاملُه مع هذا الانحراف العقدي؟ ما إن بلغَ «عمر» كلامُ غيلان الدمشقي في شأن «القدر» حتى استدعَاهُ وحاجّه داحضًا ببيانهِ شبهتَهُ المتهافتةِ، فلم يكن من غيلان إذ ذاكَ إلا أن أعلن توبته، راجعًا عما كان عليه قبلاً من مقالتهِ الضالّة.. وإذن.. فعمر وبالنظرِ إلى أنه لم يكن موتورًا سياسيًا لم يُصعّد الأمر ويجتلب العقيدة فيحيلها بابًا من كتابِ السياسة، وإنما اشتغل على الترفقِ إذ جعل الحوارَ مكان السيف، وأعلن الاكتفاء بدحضِ الحجةِ بالحجةِ، وذلك أنّ من كنتَ وإياهُ في خصومة، ولم يعرف من الأسلحة غير الكلام، فليقابل إذن بكلامٍ مثلِهِ، وتلك هي المنهجية التي لم يبرحها خامس الخلفاء الراشدين طيلة مدةَ خلافتِهِ.)[2]

أما موته وشهادته، فإن هشامًا لما أغضبه قوله وغضب عليه، قال: من لهذا القدري فيحاججه، فأشاروا عليه بالأوزاعي وتدور قصة مفبركة سخيفة بينه وبين الأوزاعي، وحوار ممجوج لا يصدقه عقل طفل صغير، ويحكم بعدها بكفره، ويصلبه هشام على (باب كيسان) في دمشق مع رفيقه (صالح)، ثم قطعوا أيديهما وبعدها أرجلهما، وجمع الناس لمشاهدته، فجاء أنصار الجبر ليديروا معه حوارًا فكريًّا، وأرادوا أن يقولوا له: إن الله هو الذي خلق

---

(1) القصص : ٤١

(2) من مقال لخالد السيف بصحيفة الشرق العدد رقم (٤١٧) صفحة (١٨) بتاريخ (٢٤-٠١-٢٠١٣)

فعلهم هذا فيه، فقالوا كيف صنع بك ربك؟ فقال لهم: لعن الله من فعل بي هذا، ونسب إليهم هذا الفعل المنكر، واشتد برفيقه العطش، فردوا عليه: لا نسقيكم حتى تشربوا من الزقوم.! فالتفت غيلان من فوق صليبه، وقال لرفيقه: يزعم هؤلاء أنهم لن يسقونا حتى نشرب من الزقوم، كذبوا إن الذي نحن فيه لبشير بالجنة وبروح الله الذي سنصير إليه بعد ساعة، فاصبر يا صالح على ما أنت عليه، فصبر حتى فاضت روحه إلى بارئها، فصلى عليه غيلان الجنازة من فوق الصليب، وبعد أن فرغ خاطب الجموع، وقال: قاتلهم الله، كم من حق أماتوه، وكم من باطل أحيوه، وكم من ذليل في دين الله أعزوه، وكم من عزيز في دين الله أماتوه.. فأخذ حديثه يؤثر في الناس، فما كان من بعض حاشية هشام، إلا أن أبلغوه بما حدث، فأمر بقطع لسانه، حتى فاضت روحه إلى خالقها ضاربًا المثل بإخلاصه لأفكاره، وولائه لقول الحق، وثورته على الظلم، حتى آخر نفس في حياته.

وبعد قتله، فرح بمقتله خصومه من علماء السلاطين، وقالوا: (إن قتله أفضل من قتل ألفين من الروم!) هكذا يقولون في قتل رجل كان عدوا للظلم، رافضًا للقهر، ساهرًا على مصالح الأمة، مناديًا بالإصلاح، مناصرًا لحقوق الضعفاء.!

يَهزِم الطاغية بالقرآن

كان (يحيى بن يعمر) الإمام العالم الفقيه النحوي المحدث من التابعين الكبار، الذين تلقوا العلم عن سلف الأمة العظام، وأدرك قادتها الأبطال الميامين، الذي كان الواحد منهم أمة وحده، فإذا به قبل أن يستلهم منهم العلم والفقه، فإنه يستلهم منهم الإباء والشمم ويتعلم منهم والشموخ الأنفة والعزة.. لقد أدرك ﷺ أبا ذر الغفاري وعمار بن ياسر و ابن عباس و ابن صرد وعثمان وعلي والنعمان بن بشير و أبي سعيد الخدري وأم المؤمنين عائشة رضي الله عن الجميع .. وكيف لمن أدرك هؤلاء ألا يكون كما كان يحيى بن يعمر، شجاعًا مقدامًا قويًا أبيًا، شديدًا في الحق لا تأخذه فيه لومة لائم.! قال عنه النسائي و أبو حاتم: ثقة، وذكره بن حبان في الثقات، وقال: كان من فصحاء أهل زمانه و أكثرهم علمًا باللغة مع الورع الشديد.. وأخذ النحو عن أبي الأسود الدؤلي، وقيل: إنه أول من وضع نقط الحروف..

لقد كان هذا العالم النحرير على موعدٍ مع الصدام بالطاغية الجبار (الحجاج بن يوسف) أكبر طاغية أثيم عرفه تاريخ أمتنا القديم، وكان هذا الصدام أشبه بمناظرة علمية، وفتوى دينية، لم يشأ فيها يحيى أن يُغضب الله برضا الطاغية، ولم يرض أن يتاجر بعلمه، ليرسل رسالة واضحة من عمق الماضي السحيق.. لهؤلاء الحمقى الذين يحملون العلم بين ضلوعهم ولا يتقون الله فيه، ولا يبتغون به وجهه الكريم، ويجعلونه رخيصًا هينًا، يرضون به رغبات السلطان وطموح الحكام.. لقد وقف هذا العالم العظيم، بكل صراحة وشجاعة، يُعلن الحق وينصف الصواب ويُخالف رغبة السلطان وهواه، غير هياب أو خائف من بطش السفاح الحجاج.. وما أرداك ما الحجاج؟! فحينما نقول كلمة الحجاج وننطق بهذا الاسم، لا يجب أن يمر

علينا مر الكرام حتى نعرف حجم الهول الذي يحمله هذا الاسم.. إنه الحجاج الذي بلغ من وقاحته وجرأته أن ضرب بيت الله الحرام بالمنجنيق!

أمثل هذا الطغيان الشديد، يستطيع أن يقاومه أو يصلب أمامه أحد، أو يفكر حتى في مجرد اعتراضه؟ لا يستطيع أحد فعل ذلك إلا أولو العزم من الرجال الأبطال، الذين يقدسون معنى الحق، ولا يخافون غير الله سبحانه وتعالى.. ولقد كان (يحيى بن يعمر) واحدًا من هؤلاء الرجال الأقوياء والأبطال الأماجد، الذين تلقوا العلم على يد الصحابة الصناديد.. أما الخبيث الحجاج فكان رجل بني أميه وفارسهم الأول أو سفاحهم الأول! الذي قضى على أعدائهم، ومكن لملكهم في الأرض بالقتل والدماء.. وكان يستهدف أهل البيت وكل من شايعهم، لأنهم أنداد بني أميه من يصارعونهم على الملك.. ولكي يخدم أسياده، ويقدم لهم فروض الولاء، ويفعل من الأفاعيل ما يثبت ملكهم، رأى لنفسه يومًا أن يطلق دعوى زائفة.. لا يريد بها العلم والحق، وإنما يبتغي بها نفاق سادته، الذين أطلقوه على رقاب الناس دون خشية أو رحمة.. فأعلن على الناس: أن الحسين هو ابن علي بن أبي طالب، وليس من ذرية الرسول ﷺ، وأما انتسابه للسيدة فاطمة رضي الله عنها فلا يزيده من الأمر شيئًا، ولا يؤهله لدعوى أنه من ذرية الرسول ﷺ أو من ولده، لأن الأب هو المعتبر في النسب.!

جاء ذلك في خطبة خطبها على الناس وأطلق فيها هذا الاجتهاد المريب، وأمر أتباعه أن ينقلوا إليه كل من يعارض هذه الفكرة، وهذه الألمعية والاجتهاد العبقري الفريد.. وسرعان ما جاءه النبأ بأسرع مما كان يتخيل.. حين بلغه أن يحيى بن يعمر رد كلامه، ورفضه وأفتى بغيره، وقال بأن الحسن والحسين من ذرية الرسول ﷺ، وأنه زاد وتجرأ فقال: بأن الحجاج يحكم ولا يفتي، فإذا أفتى ففي غير علم واعتقاد.!

ولما بلغ الحجاج هذا القول، رأى أنها فرصة سانحة ليعاقب بها هذا المجترئ يحيى بن يعمر على هذا التطاول وهذه المعارضة الجريئة، لأنه بحسب ظنه، يقول كلامه بلا دليل من القرآن أو الحديث.. فأخذ يَعد العدة لمحاكمته ومناظرته، وإحراجه والتنكيل به، فأرسل في طلبه، وقبل مجيئه جمع حشدًا هائلا من حاشيته ووجهاء الكوفة، وأرسل كذلك فدعا أتباع يحيى ومناصريه ليشهدوا إهانة شيخهم وهو يخطئ في العلم والفتوى وما يبدو عليه من ضعف الحجة والدليل.! ولما جاء يحيى دُهش من هذه الجماهير الغفيرة، ولكنه لم يتهيب ذلك ودخل صلبًا ثابتًا وأطلق السلام في هدوء ووقار.. وهم أن يجلس، فإذا الحجاج يصيح به ويقول :لا تقعد يا يحيى وأوضح لنا رأيك في صلة الحسين برسول الله ﷺ.. ولعل القارئ يظن أن يحيى وفي ظل هذا الفزع يمكن أن يُغير كلامه، أو أنه لو نطق به لربما حكاه بكل لطف ولين، حتى لا يُثير عليه حمأة الطاغية، خاصة بعد أن صار الصراع وجهًا لوجه.. لكن يحيى لم يكن من الذين يخافون أو يهادنون في الحق أحدًا مهما بلغ شأنه وعظم خطره.. فإذا به يقول في تحد منقطع النظير: إن الحسن والحسين من ذرية رسول الله ﷺ وإن غضب الحجاج.! فاستبد الغيظ بالحجاج وقال له: ألديك دليل من القرآن؟ فقال يحيى: معي الدليل من القرآن! فقال الحجاج متهكمًا: ما شاء الله، أفي القرآن أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله؟ فقال له: نعم.!

وفكر الحجاج ملياً ثم قال ليحيى: لعلك تريد قول الله عز وجل: (فَمَنْ حَاجَّكَ فيهِ مِنْ بَعْدِمَا جَاءَكَ مِنَ العِلمِ فَقُلْ تَعَالَوا نَدْعُ أَبناءَنا وَ أَبْنَاءَكم وَنِساءَنا ونِساءَكُم و أنفُسَنا و أنفُسَكُم ثُمَّ نَبتَهل فَنَجعَل لَعنةَ اللهِ على الكاذبينَ) وأن رسول الله ﷺ خرج للمباهلة ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين، فقال له يحيى: والله، إنها لحجة في ذلك بليغة، ولكن ليس منها أحتج لما قلت،

فاصفرَّ وجه الحجاج، وأطرق مليًا ثم رفع رأسه إلى يحيى وقال: إن جئت من كتاب الله بغيرها في ذلك، فلك عشرة آلاف درهم، وإن لم تأت بها، فأنا في حلٍ من دمك، فقال يحيى يقول الله تعالى: (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ، وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَ أَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ) [1]

فلما انتهى من تلاوتها، نظر للجمع الحاشد وقال للناس: أيكون عيسى بن مريم من ذرية إبراهيم عليه السلام بنص القرآن، ولا يكون الحسين من ذرية الرسول ﷺ وبينهما من القرابة الدانية، أكثر مما بين عيسى و إبراهيم؟! فبهت الحجاج، ورأى أن من الحكمة، أن يحتوي الموقف ويتراجع، حتى لا يزداد حرجه، فتصنع التبسم وقال في وداعة: اجلس يا يحيى فقد فاتني هذا الاستنباط.. وهنا.. كان مؤملاً ليحيى أن يتنفس الصعداء ويحمد الله أن نجاه من كيد هذا الطاغية الذي لا يعرف شفقة ولا رحمة.. كان بإمكانه أن يحمد الله على انتهاء هذه الملحمة بالنصر الأكيد له، ونجاته من الحرج والإهانة، ويحمد الله على قيامه فيها بواجبه.. كان يمكنه أن يعود لهدوئه خاصة أن الطاغية يخاطبه بوداعة ولين.. وفوق ذلك يتقرب إليه ويطلب منه الجلوس.! لكن العالم الثائر يأبى أن تلين ثورته على خصمه، ويرفض أن يطوي سيف الحق في مواجهته، وأخرج كل ما في جعبته من سهام الحق ليهده بها.. لقد أراد أحد الجالسين أن يصرف الحديث إلى موضوع آخر، بعد أن تأزم الموقف، فسأل الحجاج عن واسط، وهي المدينة الجديدة التي بناها، فارتاح الحجاج لهذا الانتقال، وأخذ يطنب في وصف سخائه في الانفاق على تشييدها،

[1] - الأنعام :٨٣-٨٥

وأراد أن يتودد إلى يحيى مرة أخرى، لأن النفس مازالت ملتهبة من حجته التي أخرست أمله، فمال إليه وسأله برفق: لَم تذكر لنا رأيك في مدينة واسط يا يحيى؟ فسكت الرجل ولم يرد، وتوجهت العيون إليه، فزادت من حرج الحجاج، فأعاد سؤاله في غيظ.. وهنا جأر يحيى بالحق فقال:

- أيها الأمير، ماذا أقول في واسط، وقيد شيدتها من غير مالك، وسيسكنها غير أهلك؟! فصاح الحجاج في انفعال! ما حملك على قول هذا؟ فقال يحيى في اعتداد: ما أخذ الله تعالى على العلماء في علمهم ألا يكتموا الناس حديثا! ورأى الحجاج أنه قد تورط، وبلغ به الغيظ مبلغه فصاح بيحيى: لا تساكنني ببلد أنا فيه، فاذهب منفيًا إلى خرسان.. ونفذ الحكم وذهب إلى منفاه.! وهنا يريد يحيى أن يُعلم الأمة كلها درسًا كبيرًا في الثبات واليقين والتصدي بكل قوة لكل طاغية أثيم.. بل أراد أن يوجه رسالة تشد أزر كل عالم حر ثائر، أن لا يخاف جبارًا أو عتيًا مادام قلبه معلق بالله ولا يخشى سواه.. وذلك حين رد على ذلك الخرساني الذي مال عليه وسأله متعجبًا: ألم تخش سيف الحجاج حين قلت ما قلت؟

فرد عليه قائلاً: لقد ملأتني خشية الله، فلم تدعْ مكاناً لخشية إنسان.

ما أروع هذا المثال العظيم الذي يعظم قول الحق ولا يجعله رخيصًا فيعلي عليه ما شاء من أقوال الباطل التي تُرضي السلاطين والحكام فيمن يكرهون من الناس والتيارات والجماعات والاحزاب، ويجعلون دينهم رخيصًا حينما يستخدمون سلاح الفتوى فيكفرون ويفسقون أعداء الأنظمة ومعارضي الملوك والرؤساء.. إن يحيى بن يعمر كان عظيمًا في صلابته، عزيزًا في مكانته، ولم يقبل أبدًا أن ينزل على هوى الفاسدين، أو يهادن الطاغين، مهما مسه في ذلك من أذى وعنت.. لأن نفسه ركنت إلى الله واعتزت بجنابه، فصارت حرة أبية لا يفزعها أو يهولها أن تثور وبكل شجاعة وجرأة، في وجه هؤلاء الجبناء.!

أبو حنيفة قاهر المتجبرين

لا أعلم ماذا دهى هؤلاء الشيوخ المخرفين، كيف يقرأون عن جهاد الأئمة الكبار؟ وبماذا يفسرون صلابتهم أما الطغاة عبر تاريخنا العريق؟ لا أعلم كيف لأولئك الذي يحدثون الناس ليل نهار بمسائل أبي حنيفة، وفتوى أبي حنيفة، أن يغفلوا عن صلابة الرجل في وجه الحكام الظالمين والطغاة الكبار.!

لقد ثار الإمام العظيم على الظلم في عهدي الأمويين والعباسيين.. لقد تأزمت الحياة وماجت الفتن الكبيرة في عهد الأمويين، الذين كانوا يواجهونها بكل قسوة وعنف، فيريقون الدماء، ويزهقون الارواح.. لقد كان أبو حنيفة وأمثاله من قادة الأمة الأبطال من يواجهون كل ظلم يرونه أمامهم بلا هوادة أو تراجع، حتى وإن تيقن له أنه يدق أبواب الشهادة بموقفه واختياره واستبساله وصلابته.! لقد كان ﷺ يدرك أنه أن صدامه مع الباطل حتمي في يوم من الأيام، وتسير هذه الأيام لتكشف عن حقيقة الرجل ومعدنه النفيس.. فليس هو ذلك العالم الضعيف، الذي يُرهبه سيف الحاكم وسوط الجلاد عن قول الحق والصدح به، وليس هو ذلك العالم المنافق المداهن، الذي يبيع دينه بدنياه، فيتزلف للحكام راجيًا عطاءهم ودنياهم الفانية، ليصير أبو حنيفة بثباته، إمام الفقه وإمام السياسة، وليرد هذه التصورات الخاطئة في عقول الناس ويردع كل أفاك يردد: لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة.

لقد عرف أبو حنيفة منذ حداثته، أن طريق العزة يفرض عليه أن يكون موفور العيش، حتى يصير موفور الكبرياء والكرامة، وحتى لا يدفعه الفقر أن

يكون ذليلا لسلطان يرغمه على التفريط في مبادئه والدنية في دينه، فامتهن التجارة وصار ميسور الحال عزيز النفس قوي الرأي.!

وفي ظل هذا الاضطراب سعى الأمويون بتفكيرهم الشيطاني إلى الفقهاء والعلماء، يطلبون تأييديهم ليكونوا سندًا لهم في مواجهة الناس، وتبرير ما يقدمون عليه ويرتكبونه من قرارات ومظالم، أرّقوا بها حياة الرعية، جاء رسول من الطاغية يزيد بن هبيرة والي العراق يدعو أبا حنيفة أن يتولى القضاء.. وتحت سياط الخوف وسطوة السيف، استجاب كثير من الفقهاء لهذه الفتنة المحدقة، ولبوا طلب الحاكم الطاغية.. لكن أبا حنيفة لم يكن كهؤلاء، وإنما كان نموذجًا فريدًا للعالم الحر صاحب الرأي الجريء، والتمسك بالحق، ولو كلفه ذلك حياته ومستقبله، وليس هو صاحب النفس التي ترضى بالهوان وتقبل الدنية في دينها، فإذا به يعلن رفضه لطلب الوالي وعلى الملأ، وهو يقول لمن حوله: (لو أرادني أن أَعُدَ له أبواب مسجد واسط، لم أدخل في ذلك، فكيف وهو يريد مني أن يكتب بضرب عنق رجل وأختم أنا على ذلك الكتاب.؟! فو الله لا أدخل في ذلك أبدًا)

ولله دره.. فأين ما فعله أبو حنيفة من علماء سوء حرضوا على قتل الأبرياء وذبح النساء والأطفال والعزل.. وتسببوا في تفريق الوطن وجعلوا الأخ يقتل أخيه وأحدثوا فتنة أضرت بالبلاد والعباد.!

أما رفض أبو حنيفة، فلم يكن يمر مرور الكرام، أو يتغاضى عنه الطاغي المتجبر، الذي ما لبث أن أصدر أمره بتعيينه قاضيًا للقضاة في الكوفة، و أقسم إذا رفض ليعاقبه ويجلدنه، فقال أبو حنيفة: (ضربة لي في الدنيا، أسهل علي من مقامع الحديد في الآخرة، والله لا فعلت ولو قتلني)، وبالفعل جلده ابن هبيرة ثلاثين جلدة، وأبو حنيفة متمسك برفضه، مصمم على إبائه، وأخيرًا قالوا له: إن أبا حنيفة سيموت، فقال: (ألا ناصح لهذا المحبوس

أن يستأجلني فأوجله فينظر في أمره) فلما بلغ ذلك أبو حنيفة قال: (دعوني أستشير إخواني وأنظر في ذلك) فلما بلغ ذلك ابن هبيرة أطلقه، فغادر الكوفة إلى مكة حيث لم يرجع منها إلى أن زال ملك بني أمية)[1] ويزول ملك بني أمية، ويزول ابن هبيرة، وتصفوا الدنيا من جورهم وظلمهم، ويأتي بنو العباس الذين خُدع فيهم الناس لقرابتهم من رسول الله ﷺ، وظنوا أن هؤلاء الأشراف بعهدِهِمُ الجديد، سوف يرفعون عن الناس ما ذاقوه من ويلات وآلام على يد الأمويين، ولكنهم فوجئوا بنفس التسلط والجبروت والظلم والاضطهاد والإرهاب والقتل والقمع والبغي في الارض.! كل هذا من أجل الكرسي، وفي سبيل الحكم، الذي جلب للناس كثيرًا من الشرور والمهالك.. ولم يكن لهذا الشامخ الذي صمد أمام طغاة الأمس، أن يلين أو يضعف أمام طغاة اليوم.!

أدرك أبو حنيفة أن حكم العباسيين، ما هو إلا صورة مثلى لحكم الأمويين، إن لم يكن أبشع وأفظع في ظلمه وجوره وسفكه للدماء والأرواح فها هو الخليفة المنصور، يلح عليه أن يتولى القضاء في باكورة العهد العباسي، وكان يعلم تأييد أبا حنيفة للنفس الذكية وأخاه إبراهيم، ويساعدهما في الخروج على بني العباس.. ولم يكن من اليسير على المنصور أن يقتل إمامًا مثل أبي حنيفة له قدره ومكانته في قلوب الناس، ولأنه يعلم سلفًا معنى قتل الأئمة في قلوب المسلمين، فها هو الحسين مازال جرحة أليم في قلب كل مسلم، بل لعل دمه هو اللعنة التي أصابت عرش الأمويين ومزقته كل ممزق.. ومن ثم حاول احتواءه بالمال والمنصب والجاه، فعرض عليه القضاء مرات متتالية، لكن الإمام يتجاهل طلبه ويتهرب منه، ولكن المنصور

[1] - المكي ج ١ ص ٢١- ٢٤، ابن خلكان ج٥ ص ٤١، ابن عبد البر، الانتقاء ص ١٧١.

يُصر ويقابله إصرار الإمام بالرفض والاعراض، ويستدعيه أمامه ويحلف عليه أن يتولى القضاء، ويحلف أبو حنيفة في وجهه أنه لا يفعل، فيقول له أحد الوزراء: ألا ترى أمير المؤمنين يحلف؟ فيقول الإمام: أمير المؤمنين أقدر على كفارة يمينه مني، وهنا يستشيط غضب المنصور ويأمر به ليسجن، وبعد أيام يستدعيه ويقول له: أما زلت ترغب عما نحن فيه؟ فأجاب: أصلح الله أمير المؤمنين، إني لا أصلح للقضاء، فيرد المنصور صائحًا هائجًا: كذبت، فيقول له أبو حنيفة: وكيف تريد أن يتولى أمر القضاء إنسان كاذب؟!

و أنت هنا أيها القارئ المتأمل، تقف أما أعجب مو اقف التاريخ، والتي بقوتها وندرتها وسموها، تبصق اليوم على علماء دنيؤون طامعون، وما أن يشير إليهم الحاكم بحذائه حتى يهيمون على وجوههم، يقبلونه ويلمعون واجهته بخدودهم، وبقدر ما يسيل لعابهم لإغر ائه، بقدر ما يسيل عدوانهم على الحق، وطمسهم لمعالمه، رغبة في الدنيا ومتعتها الفانية.!

ويزداد غضب المنصور، فيأمر به فيضرب بالسياط عساه يتراجع ويلين عناده، ولم يراع فيه علمًا أو سنًا أو مقامًا أو قربًا من الله، وصار الجلاد يجلده حتى بلغ ١٣٠ سوطًا.. وهنا يصيح عم الخليفة ويقول للمنصور: لقد سللت على نفسك مائة ألف سيف.. هذا فقيه المشرق يضرب بالسياط في غير جرم دون أن تخشى انتقام السماء؟! فتراجع الطاغية وأمر بإطلاق سراحه، وسرعان ما بلغه وفاة الإمام متأثرا بجراحة.!

ويرحل الامام الأعظم بطلاً قويًا صامدًا ثائرًا ناصرًا للحق ر افضًا للظلم.. لم يقهره المنصور بسياطه.. بل هو الذي قهر المنصور بجلده وثباته.. وهكذا العلماء الأحرار تثور نفوسهم على الإفك، وترفض الزيف، ولا تستسلم له ولا تقبله.

وفي موقف أبي حنيفة من الثورات في عهده نجد عجبًا، يقول الدكتور الشكعة رحمه الله في مؤلفة القيم الباهر (الأئمة الأربعة): لم يكن أبو حنيفة بمعزل عن الأحداث السياسية في عصره هو إنما كان يتابعها ويسهم في صنعها بالرأي والفتيا والمال، وكان متعاطفا مع آل البيت فانتصر للإمام زيد إبان ثورته على بني أمية، ولما قدم العباسيون رحب بهم أول الأمر فلما تنكبوا الطريق السوي ناهضهم، ووقف في صف محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم حين قاما بثورتهما على العباسيين، ولما فشلت الثورة لم يبد الامام ندما على مشاركته فيها وإسهامه في تمويلها ، وكان هذا من أسباب الجفوة بينه وبين المنصور .. وكان أبو حنيفة يرى السيف أداة لمناصرة الحق، ووسيلة لإزاحة الباطل وسبيلا للقضاء على الحاكم المنحرف، ولم يأس أبو حنيفة من مناصبة المنصور العداء، ومناصرة إبراهيم بن عبد الله وكان خروجه بالكوفة، وكان دائم التأييد له كثير الحديث عنه في حلقته ومجالسه، معلنا رأيه مجاهرا به مجاهرة شديدة، مما جعل تلميذه زفر بن الهذيل يقول له: والله ما أنت بمنته حتى توضع الحال في أعناقنا.! وينسب إلى زفر قوله: إنه لم يلبث أن جاء كتاب المنصور إلى عيسى بن موسى ان احمل أبا حنيفة، فحمله إلى بغداد فعاش خمسة عشر يوما ثم سقاه
السم فمات.

وسواء صح خبر السم أم لم يصح، فإن أبا حنيفة كان شديد المناصرة لأهل البيت من بنى الحسن، مسهما فى ثورتهم ضد المنصور، مشجعا الناس على الانضواء تحت لوائها وخوض غمار الحرب انتصارا لها لقد مات أبو حنيفة وهو في جلال الشيخوخة وقمة الجهاد، من أجل إيجاد الحاكم الصالح، والحليفة العادل، وتهيئة حياة الأمن للمسلمين، وتجنيبهم ظلم واستبداد السلطان"

مالك يصادم الطغيان

بعد أن ارتفعت مكانة ومنزلة الإمام مالك عند الخاصة والعامة، حتى جلس الخلفاء بين يديه، وقرأ الأمراء له، وأخذ الخلفاء بمشورته، وصدع الناس لما أمرهم به، حسده على ذلك بعض أهل العلم ممن يؤثرون الدنيا ويسعون إليها، ووشوا به عند أمير المدينة جعفر بن سليمان في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور سنة ١٤٧هـ، وكانت التهمة: أن مالكًا لا يرى أيمان البيعة للخلافة هذه بشيء، ولكن هل قال مالك ذلك حقًا؟

إن الذي أفتى به رحمه الله أن يمين المُكره لا تُلزمه، وذلك عملاً بالحديث الموقوف عن ابن عباس: (ليس لمكره ولا لمضطهد طلاق)، ولم يكن سبب المحنة هو التحدث بهذا الحديث وحده، ولكن المشكلة في رو ايته وقت الفتن واستخدام الثائرين لذلك الحديث ولمكانة الإمام مالك العلمية لتحريض الناس على الخروج على الخليفة، فلما بلغ الأمر مسامع الخليفة أمر الإمام مالكًا ألا يحدث الناس بهذا الحديث وبهذه الفتوى، ونهاه عن ذلك بشدة، فلم يستجب مالك رحمه الله لهذه الضغوط ولم يسكت، فقد كان يرى في السكوت عنه كتمانًا للعلم الذي استودعه إياه الله عزوجل، وقد نهى الله عزوجل ورسوله الكريم ﷺ عن كتمان العلم وتوعدا فاعله بالنار.

ولعلم أبي جعفر المنصور، أن الإمام مالكًا لن يسكت عن نشر العلم، فقد أمر واليه على المدينة جعفر بن سليمان أن يدس على مالك من يسأله عن هذا الحديث على رؤوس الناس، وبالفعل أجاب مالك على المسألة وروى حديث ابن عباس، وعندها أرسل جعفر بن سليمان من قبض على الإمام مالك، واحتج عليه بما رفع إليه عنه، فلم ينكر الإمام ولم يخش في الله عز وجل لومة لائم، فأمر جعفر بتجريده من ملابسه، وضربه بالسياط

وجبذت يده حتى انخلعت من كتفه، وعذبه عذابًا شديدًا، وأهانه وتعمد إسقاط هيبته ومنزلته بكل هذه الإساءات، ولكن الله عز وجل قد رفع قدر مالك بعد هذه المحنة، وازداد رفعة بين العالمين وهذه ثمرة المحنة المحمودة، فإنها ترفع صاحبها عند المؤمنين.

وعندما علم أهل المدينة بما جرى للإمام مالك، اشتد سخطهم على الوالي، وتطاولوا عليه بل وعلى الخليفة نفسه، خاصة وأن مالكًا قد أُصيب في هذه المحنة بعجز كبير في ذراعه، فلم يقدر بعدها على رفعها إلا بمساعدة ذراعه الأخرى، وقد جلس في بيته، وشعر الخليفة أبو جعفر المنصور بمرارة ما فعل، فأرسل إلى الإمام مالك يعتذر إليه، ويتنصل مما فعله واليه، ولما جاء أبو جعفر إلى الحجاز، حاجًا أرسل إلى مالك واجتمع معه وبالغ له في الاعتذار، وذلك كله لتطييب خاطر العامة أولاً، ثم الإمام ثانيًا.

وفي هذه المحنة اختلفت النظرة إلى الحديث النبوي، بين الإمام مالك العالم التقي الرباني، وبين الحكام، فرأى مالك في إذاعة الحديث نشرًا للعلم وتبصيرًا للناس، فلم يكتمه إرضاء للحكام ولا لأي سبب مهما كان.

ورأى الحكام في إذاعته تحريضًا على الفتنة والثورة لأن فيه بيانًا ببطلان بيعة الخليفة، وصادف ذلك خروج محمد بن عبد الله العلوي الملقب بالنفس الزكية على المنصور، ومطالبته بالخلافة لنفسه، وكان في المدينة وذلك سنة ١٤٦هـ.

ومهما يكن من مبررات الخليفة، والتي ساقها من أجل منع الإمام من التحديث، يبقى ثبات الإمام مالك وجهره بالحق، وتعظيمه للعلم، وصبره على الضرب والتجريد والإهانة، إذ ضرب لعلماء الأمة كلها مثالاً يحتذى به في الصبر والثبات، نسج على منواله الأئمة من بعده مثل الشافعي

وأحمد بن حنبل، ممن ابتلوا في ذات الله، وصبروا على الحق وجهروا بالعلم، ورفعهم الله عزوجل بذلك لأعلى الدرجات بين العالمين.

قال الدراوردي: لَمَّا أحضر مالك لضربه في البيعة التي أفتى بها - وكنت أقرب الخلق منه - سمعته يقول: كلما ضُرب سوطا: "اللهم اغفر لهم؛ فإنهم لا يعلمون" حتى فرغ من ضربه، وقيل: إن مالكا ضرب ثلاثين سوطًا، وقيل: نيفًا وثلاثين، وقيل: ستين، وقيل سبعين سوطًا، وقيل مئة سوط.

ويذكر الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء: أنه بعد ضرب الإمام مالك أمر جعفر بن سليمان أن يطاف به في المدينة، فيقول: "لما ضُرب مالك حُلق وحُمل على بعير، فقيل له: ناد على نفسك، فقال: "ألا من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني؛ فأنا مالك بن أنس، أقول: طلاق المكره ليس بشيء"، فبلغ ذلك والي المدينة فقال: "أدركوه، أنزلوه". وحمل مغشيا عليه إلى بيته.

قال مطرف: رأيت آثار السياط في ظهره، قد شرَّحته تشريحًا، وكان حين مدوه في الحبل بين يديه خلعوا كتفه، حتى ما كان يستطيع أن يُسوِّي رداءه.

وقال إبراهيم بن حماد إنه: "كان ينظر إلى مالك إذا أقيم من مجلسه حمل يده بالأخرى".

وأمام هذا الموقف الكبير، والحدث المثير، يستطيع القارئ أن يدرك تعظيم العالم الرباني لعلمه، وتقديسه لمقامه، وإيمانه أن العلم لا ينحني لأحد مهما كان مكانه وسلطانه، ولا يُكتم من أجل أحد مهما كانت علت وأحواله وأمواله، وهو مثال يباين حالة أولئك العلماء الذين يُسخِرون علمهم للأهواء والشهوات، ويجعلونه خادمًا للسلاطين والحكام، ويجهزون لهم ما يُرضي أمزجتهم ورغباتهم من الفتاوى الضالة الآثمة.

من أجل هذا الثبات والاصرار على الحق وإظهار العلم، نال العلماء مكانتهم العظيمة في دنيا الناس، واستحقوا أن يكونوا قادة المجتمع ورواد

الأمة، والزعماء الحقيقيين الذي يقتربون من مشكلات الناس ويحملون همومهم، فهم الصادقون في دينهم وأخلاقهم، وشجاعتهم هائلة لا حدود لها، لا ترهب طاغية ولا تعبأ بسلطان.

لقد ارتعد والي المدينة من نداء مالك حينما طوف به في شوارعها، لأنه يخشى أن يستوعب الناس محنته، ويسمعوا لقوله، ويدركوا ما أراد الوالي وخليفته أن يتعامى على أذهانهم.

(كان الإمام مالكا في قرارة نفسه غير راض كل الرضا عن العباسيين أو سابقيهم من الأمويين، لأنه سئل ذات مرة: هل يجوز على قتال الخارجين الخلفاء؟ فأجاب قائلا: يجوز إن خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز، وهى إجابة في ذروة الدهاء، لأن أحدا من خلفاء الأمويين أو العباسيين لم يكن عشر معشار ما فى عمر بن عبد العزيز من فضل وعدل)

قذائف تزلزل عرش المنصور

تاقت نفس أبو جعفر المنصور يومًا أن يرى إنسانًا يحبه ويقدم إليه النصيحة دون مجاملة أو زيف أو نفاق مما يرى حوله من المتزلفين المداهنين، فأخذ يقلب في ذاكرته عله يعثر عن الشخص المنشود، فتذكر صديقه القديم الذي صار اليوم ملء السمع والبصر، ولكنه لم يكن مثله من طلاب الدنيا وإنما من طلاب الآخرة.! إنه العالم الزاهد العابد التابعي (عمرو بن عبيد) الذي رغم انتسابه للمعتزلة، إلا أن الجميع أقر بطهارة نفسه، وسمو روحه وترفع زهده وصفاء خِلاله، ولم لا وقد كان من أصحاب الحسن البصري وتلامذته المقربين، حتى أنه قال فيه من فرط إعجابه به كلامًا بليغًا معجزا: لقد قال: عمرو بن عبيد رجل كأن الملائكة أدبته، وكأن الأنبياء ربته، إن قام بأمر قعد به، وإن قعد لأمر قام به، وإن أمر بشيء كان ألزم الناس له، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، ما رأيت ظاهرًا أشبه بباطن منه، ولا باطنًا أشبه بظاهر منه.!

بل قال فيه الامام الذهبي (هو الزاهد العابد)[1]

وقال عنه حفص بن غياث : (ما لقيت أزهد منه وقيل أنه حج أربعين سنة وبعيره يقاد معه فيركبه الفقير والضعيف والمنقطع ، وكان يحيي الليل كله بركعة واحدة ، فعل ذلك غير مرة في المسجد الحرام[2])

---

[1] - سير أعلام النبلاء

[2] - مقالات الاسلاميين

عرف عمرو طريق العلم والزهد في شبابه، وتعلم مبكرًا أن أخطر شيء على الطريق الذي اختاره لنفسه هو القرب من أصحاب الجاه والنفوذ، الذين يملكون الدنيا ويتمرغون في غرورها، وهو الايمان الذي أحس عليه بالخطر حينما جاءته دعوة المنصور ليمثل بين يديه، فحار للأمر وتساءل: لماذا يريدني هذا الرجل وقد طلقت دنياه؟ ما هو الشيء المشترك الذي يجمعني به حتى يرسل في طلبي؟ لقد كانت تربطني به صداقة قديمة في عصر الامويين، فما الذي يجبره وهو في ظل هذا الملك العتيد أن يتذكرني ويرسل إلي.؟!

كل هذه الأفكار دارت في رأس عمرو، وكادت أن تورثه حيرة مؤرقة، حتى قفزت عليها أفكار أخرى، أوحى بها يقينه و إيمانه وصلابته، وأوعزت بها أخلاق العالم الثائر والعابد الزاهد، الذي لا يرهب غير الله، ولا يخشى فيه لومة لائم.. بل دفع إليها شعوره بالمسؤولية عن الأمة ومقامه كعالم يقود الناس ويدافع عن قضاياهم ويسعى إلى مصالحهم ويواجه ما يحيق بهم من أخطار.!

ولعلك هنا أيها القارئ تستسهل الأمر فيخيل إليك أن عمرو لا يقابل مشكلة ولا يواجه خطرًا فحتى لو أنه أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ورد المنصور في عنف فلن يصيبه أي أذى لأن أبو جعفر يحترمه ويوقره ويحبه ويشتاق لرؤيته.. ولعلك يرجع إلينا لأننا لم نزيدك بيانًا بشخصية أبي جعفر، حتى تعرف أن عَمرًا سيواجه الجبال الشم والصخور الصم.. فأبو جعفر طاغية العباسيين وأشهرهم سفكا للدماء وقتلا للنفوس والبطش بكل من تسول له نفسه أن يعارض أو يخالف، أو تسول له نفسه أن يقول الحق بحضرته.. لم يقتل أعداءه ومخالفيه فقط، وإنما امتدت يده لتقتل أصدقاءه وأعوانه، ثم من بعدهم بني عمومته من أبناء علي كرم الله وجهه، ثم انتقل بعدها لقتل بني العباس أنفسهم.. كان يقتل كل من يتوجس منه

شرًا أو يشك فيه مجرد شك يسير.. حتى أنه قام بإقصاء ولي عهده عن الحكم، بإفك و افتراء ليمهد العرش لولده المهدي.. وقف عمه يومًا وقال له، يا أمير المؤمنين لقد هجمت بالعقوبة، حتى كأنك لم تسمع عن العفو فقال: لأن بني أمية لم تبل رممهم، وآل علي لم تغمد سيوفهم، ونحن بين قوم قد رأونا أمس سوقة ولا نتمهد هيبتنا في صدورهم إلا بنسيان العفو.!

هذا إذن هو الرجل الذي سيواجهه (عمرو)، ولكن مهما يكن هذا الرجل، ومهما وصل إليه من ظلم وعتو.. فإن عمرًا لا يخشى أحدًا غير الله ويهوى الموت كما يهوى أصحاب الحياة.. ولن يرده عن قول الحق أحدًا فليغضب من يغضب وليسخط من يسخط.. فرضاء الله فوق هامات الجميع.. إن عمرًا لم يكن مجرد عالم زاهد ينزوي في محرابه يعبد الله ويذكره صباح مساء وإنما كان ذلك العالم الثائر لحقوق الناس، والمدافع عن حقوقهم، بل كان المجاهد الذي يعشق الحق وينصف الحقيقة مهما كلفته من عناء وبلاء.!

ويصل عمرو إلى سدة البلاط الملكي وما أن علم المنصور بوصوله حتى أمر بإدخاله، وما أن دخل حتى استقبله بالبشر والترحاب وقال له: عظني يا أبا عثمان.! ولم يمهله عمرو في هدوئه حتى صب عليه قذائف الحق، و أثار على ملكة رياح النصيحة العاتية، فاندفع يقرأ قول الله تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ، وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ، وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ، الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ، إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)[1] وكرر الآية الأخيرة في تحدٍ جرئ عنيد، ففهم المنصور ما يعني، وملكته رعشة مترنحة، فتساقطت من عينه دموع الخشية والندم.!

---

[1] -الفجر :٦-١٤

وواصل الرجل موعظته، ثم صاح في شجاعة منقطعة النظير، وقال له بصوت الحق العالي: إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منه ببعضها، واعلم أن هذا الأمر الذي صار إليك، إنما كان في يد من كان قبلك، ثم أفضى إليك، وكذلك يخرج منك إلى من هو بعدك، وإني لأحذرك ليلة تتمخض صبيحتها عن يوم القيامة يا أمير المؤمنين.!"

وهنا لم تتعود حاشية الخليفة أن يروا من يتجرأ عليه، فقال أحدهم: رفقا بأمير المؤمنين فقد أتعبته اليوم.. فقال له: عمرو: من أنت؟ فقال أبو جعفر: أولا تعرفه يا أبا عثمان؟ فقال: لا، وما أبالى ألا أعرفه! فأجاب المنصور: هذا أخوك سليمان بن مجالد، فضحك عمرو متهكمًا وقال: هذا أخو الشيطان، ويلك يا ابن مجالد! خزنت نصيحتك عن أمير المؤمنين، ثم أردت أن تحول بينه وبين من أراد نصيحته!

يا أمير المؤمنين: إن هؤلاء اتخذوك سلمًا لشهواتهم، فأنت كالآخذ بالقرنين وغيرك يحلب، فاتق الله فإنك ميت وحدك، ومحاسب وحدك، ومبعوث وحدك، ولن يغنى عنك هؤلاء من ربك شيئًا.! {ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون}[1]

فقال المنصور: يا أبا عثمان، أعنى بأصحابك فأستعين بهم دون هؤلاء.. فرد الرجل في قوة: يا أمير المؤمنين أظهر الحق يتبعك أهله!

ثم أخذ عمرو ببصره يقلب بين الحاضرين فأبصر شابًا عليه دلائل الترف والإمارة و الجاه، وتوقع باستشفافه الملهم أن ولي العهد، فسأل المنصور: من هذا الفتى يا أبا جعفر؟ فرد الخليفة: هذا ابني المهدي ولي عهد المؤمنين فقال عمرو: والله لقد سميته اسما ما استحقه بعمل، وألبسته

---

[1] - ابراهيم: ٤٢

لبوسًا ما هو من لبوس الأبرار، ومهدت به أمرًا أمتع ما يكون به أشغل ما تكون عنه.!

تضايق الخليفة من صراحة العالم المجاهد الداعية. ولما انتهى اللقاء شعر المنصور بحرج شديد من موعظته التي لم يكن يتوقعه في يوم من الأيام لأنه رجل مختلف عن كثير من المتملقين الذين يزينون له الباطل ويجملون له الخطأ، ولم يملك المنصور إلا أن يعبر عن حقيقة ما يجيش في صدره فقال وهو يترنم: كلكم طالب صيد.. كلكم يمشي رويدًا.. غير عمرو بن عبيد.!

إمام الصمود والتحدي

وقف أحمد بن حنبل في وجه دولة بأكملها، وعصى إرادة الحاكم فيها، ورد رأيه وحكمه وتمرد على سلطانه، حينما قرر ما يُفسد العقيدة، ويخالف ما أنزل الله، لقد عصى ولي الأمر وخليفة المسلمين، الذي تدين له المشارق والمغارب، لأنه قال في القرآن بما ليس فيه، وتحمل ﷺ في سبيل ذلك أعظم البلاء وأجل المصاب.. ولم يهرب، ولم يعتكف، ولم يقل يقال: ولي الأمر وتجب طاعته، ولم ينعزل بحجة أنها أيام فتن، لم يفعل الإمام العظيم شيئًا من هذه الصور التي هي في حقيقتها جبن كبير، إنه لم يفر من مسؤوليته التي يدرك أبعادها إن كان من الناكثين المهزومين والخانعين.. فالدنيا كلها تنتظر رأيه، وتدون قوله، وتدين بفتواه، ولو أنه مال وانحرف واستكان وضعف لفسدت عقيدة الناس وتسبب في إضلالهم.

لقد كان المأمون بعد أن تولى خلافة المسلمين يميل إلى المعتزلة ويعتنق عقيدتهم، ويقول بآرائهم الفاسدة في خلق القرآن، وأوعز له كبراؤهم إلزام الناس بها، فكتب إلى واليه على بغداد أن يجمع القضاة والعلماء، ويلزمهم بالقول بخلق القرآن، ومن خالف ذلك حبسه أو عزله أو قتله.. وبدأت الفتنة واشتعل الصراع وتتابعت موجات الظلم والبطش، فحُبس وعذب وقتل

خلائقُ لا يحصون.. وكان الأمام أحمد من الثابتين الصامدين في هذه الفتنة، حين واجه السلطان برأيه الحر وحجته الدامغة ولم يرهب سطوته أو بطشه، ولم يطعه فيما يدعو من فساد وضلال، ولم يقل طاعة ولي الأمر واجبه، وإنما كان إيمانه الكبير يُملي عليه طاعة واحدة وهي طاعة الحق فوق كل طاعة.!

أمر المأمون أن يقبض على ابن حنبل وأن يرسل إليه في طرسوس، وجاءه رسوله في الطريق حتى يرهبه، ويجري له عملية تحطيم معنوي فقال له: إن الخليفة قد أعد لك سيفًا لم يقتل به أحداً، لكن أحمد وهو إمام الثابتين المؤمنين ما كان له أن يخيفه مثل هذا الوهن، فرد على القائل بقوله: أسأل الله أن يكفيني مؤونته، فدعا الله عزوجل في أثناء الطريق أن لا يريه وجه المأمون ولا يجتمع به، فاستجاب الله عزوجل دعاءه، وما هي إلا مدة قصيرة، وإذا بالخبر يصل بوفاة المأمون قبل أن يصل إليه الإمام أحمد، فأعيد إلى السجن مرة أخرى.. وتولى المعتصم الخلافة وقد أوصاه المأمون قبل موته بتقريب المعتزلة، والاستمرار بالقول بخلق القرآن وأخذ الناس بذلك، وجاؤوا بأحمد من السجن وعقدوا مجلسًا مع ابن أبي دؤاد وغيره من علماء الاعتزال، وجلسوا يناقشونه في خلق القرآن، والإمام أحمد يُسقط أقوالهم وحججهم بالنصوص الواردة، ويقول لهم: أعطوني دليلاً من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، واستمرت المناظرات ثلاثة أيام، والإمام ثابت على الحق، يقولون: ما تقول في القرآن؟، فيقول: كلام الله غير مخلوق.

واستمرت هذه المناظرة العلنية ثلاثة أيام، والإمام ثابت لا يتزعزع، وخصومه من حوله تتساقط شبههم وبدعهم، حتى كان اليوم الرابع، وكان المعتصم قد ضجر من طول المناظرة، وأغراه قاضي المحنة أحمد بن داود، حتى وصل الأمر إلى التهديد بالضرب والجلد والقتل.

فقال الإمام أحمد: يا أمير المؤمنين: إن رسول الله ﷺ قال: (لا يحل دمُ امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله و أني رسول الله إلا بإحدى ثلاث) فبم تستحل دمي و أنا لم آت شيئًا من هذا؟، يا أمير المؤمنين تذكر وقوفك بين يدي الله عز وجل كوقوفي بين يديك، فهدأ المعتصم ولان، فتدخل ابن أبي دؤاد وقال: يا أمير المؤمنين، إن تركته قِيل: إنك تركت مذهب المأمون، أو يقال إنه غلب خليفتين، فهاج المعتصم، وأمر بإعادة الإمام أحمد إلى السجن وجلده حتى يرتد عن رأيه.

وأحضرت السياط، وشُد أحمد على خشبة الجلد حتى خلعت يداه، والجلادون يتناوبون على ضربه، هذا يضرب سوطين، والآخر ثلاثة، وهكذا حتى إذا بلغ سبعة عشر سوطًا، وبعدها قام إليه المعتصم وقال له: يا أحمد علام تقتل نفسك؟ و إني والله عليك لشفيق، وجعل عُجَيْفٌ من قادة الترك ينخسه بقائمة سيفه ويقول: أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟ وجعل بعضهم يقول: ويلك إمامك الخليفة على رأسك قائم، وقال: بعضهم: يا أمير المؤمنين دمه في عنقي فاقتله، وجعلوا يقولون: يا أمير المؤمنين أنت صائم، و أنت في الشمس قائم، وكان ذلك في شهر رمضان والمعتصم يقول: ويحك يا أحمد ما تقول؟ فيجيب الإمام بكل صمود وثبات: أعطوني شيئًا من كتاب الله، أو سنة رسول الله أقول به، فيأمر المعتصم بمواصلة الضرب، ثم قال له المعتصم مرة أخرى: أجبني إلى شيء فيه أدنى فرج حتى أطلق عنك بيدي، ويرفض الإمام عرضه ويمضي في صموده، فأخذوا في ضربه حتى أغمي عليه من شدة الضرب، وتمزق ظهره من لهيب السياط.

بعد هذا الثبات العجيب التي تعجز عن مثله الجبال الراسيات، أمر المعتصم بإطلاق سراحه يائسا منه عاجزا عن إذلاله، وخرج الإمام أحمد وعاد إلى بيته بعد ٢٨ شهرًا من الحبس والضرب من سنة ٢١٨هـ حتى سنة ٢٢١هـ

ثم توفي المعتصم، وتولى بعده الواثق، وتوافد عليه علماء السوء يحرضونه على الفتنة حتى استأنف مسيرتها وأخذ عهدها أخرى واستمر حكمه خمس سنوات: وقيل إنه تراجع عن القول بخلق القرآن في آخر عهده، ثم توفي وجاء بعده المتوكل فأعلن السنة، وكتب إلى العلماء في الآفاق بأن يمنع الناس من الخوض في هذه المسألة، والقول بهذه البدعة، وانتصر الحق على الباطل، ولهذا لما قيل للإمام أحمد أيام المحنة: يا أبا عبد الله.. انتصر الباطل على الحق، قال: والله ما انتصر الباطل على الحق.

لقد صمد أحمد في وجه الظلم، وصبر على البلاء، وواجه المحنة بكل إباء.. انتصر بإيمانه وشجاعته، ونصر الحق على الباطل، وكان آية من آيات الصلابة والتحدي.. في وجه دولة بأكملها وخلافة مترامية الأطراف، رأى أنها على ضلال وخطأ، فلم ينبطح وينتكس ويتراجع، أو يخرس صوته وتضعف همته من الخوف والقلق الذي يجلبه السوط والسيف.

ولكنه كما قيل عنه: أنه بعدما رأى الناس يجيبون للقول بخلق القرآن تحت التهديد والوعيد، وكان من قبل رجلا لينًا، انتفخت أوداجه، واحمرَّت عيناه، وذهب ذلك اللين، وغضب لله عز وجل، وجهر بالحق.. فهل يقتدي علماء الأمة اليوم فيثوروا للحق وتنتفخ له أوداجهم في وجه الباطل ومن أتى به، حتى لو كانت الحكومة والسلطان؟! أم أن كثيرين منهم يصرون بعدما قرؤوا من ثبات أحمد، أن يجعلوا الحكام والسلاطين آلهة يشرعون ويقننون، أو أنبياء يوحى إليهم من قبل السماء؟! ومن ثم يقدم قولهم على قول القرآن

ومن نزل عليه القرآن ﷺ ؟! لقد رحل أحمد ورحل الطغاة في زمنه، ولكن.. من بقي منهم إلى اليوم تاجًا يبرق على الرؤوس وقدوة تحتذى ومثلا يروى، لقد أصبح الإمام أحمد علمًا من أعلام الإسلام في عصره وبعد موته حتى يومنا هذا، وكانت خاتمته وجنازته من أيام الإسلام المشهودة، وبقي علمه وفقهه وكتبه ومذهبه حتى يومنا هذا، حتى كأنه حي بين أظهرنا.. أما هم فما يذكرهم التاريخ إلا طغاة جبارين قبيحي الوجوه والأفعال.. ختم الله لهم بالهلاك وسوء المنقلب.

البويطي.. أسد في القيود

ونحن الآن مع إمام جليل من أئمة المسلمين الثابتين في وجه الظلم والجور والسلطان الغاشم، إنه الإمام المصري الذي ولد في أواسط القرن الأول الهجري، ولا يُعلم على وجه التحديد في أي عام ولد، ولكنه يرجع لأرومة قرشية أصيلة، أما نسبه البويطي فيرجع إلى قرية بويط بصعيد مصر؛ حيث استقرت فيها أسرته منذ الفتح الإسلامي للبلاد.. تلقى العلم في بداية حياته في قريته، ثم انتقل إلى الفسطاط مع أبيه، وجلس لعبد الله ابن وهب شيخ المالكية في مصر، وحمل عنه علمًا كثيرًا؛ وشاءت الأقدار أن يرحل الشافعي إلى مصر سنة ١٩٨ هـ لنشر علمه، فاستمع إليه البويطي، وحضر حلقه وتعلم على يديه وصار من تلاميذه المقربين، وتوسم الشافعي فيه نجابة وذكاء فاعتنى به وقربه، وأوصى أن يكون وريث حلقته ومجلسه الفقهي في مسجد عمرو، حيث قال: ليس أحد أحق بمجلسي من يوسف بن يحيى، وليس أحد من أصحابي أعلم منه.

و أثنى عليه بقوله: ليس في أصحابي أحد أعلم من البويطي، حتى أن مسائل العلم والفتاوى التي كانت ترد إلى الشافعي كان يحيلها على البويطي ليجيب عليها، وإذا اعترض أحد على ذلك قال له: البويطي لساني الذي أتكلم به، حتى إنه كان يرسله مع رجال الوالي من الحرس والشرط لردع العصاة، والاحتساب على الماجنين والفاسقين، ويالها من ثقة كبيرة من إمام جليل، تشير إلى مقام هذا التلميذ في العلم، وقدره في المسؤولية.

ولم تكن شهادة الشافعي وحدها هي التي تعبر عن قدره وتثمن شخصه، و إنما كان أصحابه أول من يعرفون تميزه وعلو نفسه، فقد قال رفيق دربه في طلب العلم الربيع المرادي: كان البويطي أبدًا يحرك شفتيه بذكر الله،

وما أبصرت أحدًا أنزع بحجة من كتاب الله من البويطي، وكان يسرد الصوم، ويختم القرآن في الأسبوع الواحد عدة مرات، وكان من رجال العامة، يقوم مع الناس في حاجاتهم، وله صنائع المعروف مع الناس أجمعين..

وقال عنه الذهبي: كان إمامًا في العلم، وقدوة في العمل، زاهدًا، ربانيًا، متهجدًا دائم الذكر والعكوف على الفقه..

وقال عنه جاره ابن أبي الجارود: كان البويطي جاري، فما كنت أنتبه ساعة من الليل إلا سمعته يقرأ ويصلي..

وقال ابن خلكان: البويطي صاحب الشافعي ﷺ كان واسطة عقد جماعته، وأظهرهم نجابة، وكان صالحًا متنسكًا، عابدًا زاهدًا.

ولم يكن البويطي ألمعيا ذكيًا نابهًا فقط.. وإنما كان من أعظم صفاته وأميزها، والتي أدخلته التاريخ كقدوة عظيم، وعالم رباني محمود السيرة والمسيرة، هي قوته في الحق وشدة تمسكه به، فكان لا يرهب في سبيلة ظلم ظالم، أو بطش سلطان، ولديه استعداد أن ينطق به ويجهر بمراده، ولو كان السيف على رقبته، وهي صفات لم تكن تلائم ذلك الزمان أو تناسب طبيعته المليئة بالفتن، وتعرض صاحبها للخطر الشديد والمواجهة الحرجة.. ولقد فطن الامام الشافعي وتنبأ بما سيكون لتلميذه النجيب لما عرفه منه من صدعه بالحق ولو كان مرًا، فقال لتلاميذه يومًا: ترون هذا؟ لن يموت إلا في حديدة قال ذلك قبل أن يصدق حديثة ونبوءته بـ ١٢ عامًا حينما تعرض البويطي لفتنة خلق القرآن.. فقد كانت المحنة شديدة على عهد المأمون والمعتصم ولكنها في عهد الواثق اتخذت شكلا أوسع، وتعمقت في كثير من الأمصار، حيث بعث إلى الولاة أن يمتحنوا العلماء في القول بخلق القرآن، ومن يمتنع يعتقل ويسجن، ويساق إلى الخليفة في بغداد حتى يحكم في أمره.!

لقد كانوا يتتبعون الأئمة والعلماء وكبار المشايخ، ويسكتونهم ويقمعون ألسنتهم أن تنطق بالحق بالترغيب مرة والترهيب مرة أخرى وقام بعض الوشاة والحسودين الكارهين للبويطي بالكتابة للسلطة عن مخالفته للقول بخلق القرآن، والاشارة لعقيدته السلفية الرافضة لفكر المعتزلة، وما أن علم ابن أبي دؤاد رأس الفتنة وكبير المعتزلة بالأمر، حتى كتب إلى والي مصر يأمره بامتحان الإمام البويطي، وحاول الوالي لحبه للبويطي أن يجد له مخرجًا وحيلة، فقال له: قل فيما ببني وبينك، أي تظاهر بالموافقة فقط، حتى تأمن غائلة الطاغية ابن أبي داود، والموقعين به، لكن البويطي ضرب أروع الأمثلة في فهم مكانة الإمام، وطبيعة الدور الذي يؤديه في قيادة الأمة وقت النوازل، وأبى أن يترخص في الأمر، وعمل بالعزيمة كما فعل أخوه الإمام أحمد بن حنبل، وقال للوالي المشفق عليه: إنه يقتدي به مائة ألف، لا يدرون أني أتظاهر فقط بالموافقة، وإن أجبت أجابوا هم أيضًا؛ فقبض عليه، وحمله مقيدًا إلى بغداد سنة ٢٣٠هـ.

هكذا يثبت على مبادئه ويتحدى الدولة الخاطئة والحكومة الضالة التي أتت منكرًا من القول وزورًا، لم يطع أمر الكبراء بحجة طاعة ولي الأمر، ولم يتنكر للحق بحجة وجوب طاعة السلطان، ليظل الحق هو السيد والإمام والهدى المتبع.. إن سيرة البويطي صفعة من صفعات التراث الإسلامي العظيم تهوي على أقفية العمائم الضالة ووجوه العلماء المنافقين التي يعبدون السلاطين من دون الله.. صفحة مضيئة من صفحات التاريخ الإسلامي البطولي المشرق لقائد من قادته العظام، وهامة من هاماته العالية، تلفت العلماء المتخاذلين الجبناء إلى تفريطهم في أمانتهم ورسالتهم وأهانتهم للعلم وإهدارهم لكرامته حينما صاروا أذلة متخاذلين إمعاتٍ تحت أجنحة الحكام.

لا شك كانت رحلة شاقة ومؤلمة عانى منها الامام الجليل وهو في القيود ولكن كل شيء يهون.. الجسد يهون.. والنفس تهون.. من أجل نصرة الحق وإظهار الحقيقة..

مشهد محزن صوره لنا صديقه الربيع فقال: لقد رأيت الإمام البويطي على بغل في عنقه غل، وفي رجله قيد، وبينه وبين الغل سلسلة فيها لبنة وزنها أربعون رطلاً، وهو يقول: إنما خلق الله الخلق بـ (كن)؛ فإذا كانت مخلوقة، فكأن مخلوقًا خلق بمخلوق، ولئن أُدخلت عليه - يعني الخليفة الواثق - لأَصْدُقَنَّهُ: أي أقول الصدق، ولا أخاف منه، ولأموتن في حديدي هذا حتى يأتي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم.

يالها من كلمات لو قرأها علماء السلاطين لبكوا على أنفسهم لتفريطهم الكبير..

وما كاد البويطي أن يصل إلى بغداد حتى أمر ابن أبي داود بإلقائه في غياهب السجون، والتشديد عليه، ولم يمتحنه كما فعل مع غيره من العلماء، ولم يدخله على الخليفة كما هي العادة مع كبار العلماء خوفًا من أن يقنع الواثق بالحق، ويرده عن البدعة.. وظل في السجن عدة شهور كان فيها مثالا للمؤمن الثابت الصابر المحتسب القائم المتمسك بالحق، وكان يعلّم المساجين أمور دينهم، ويناظر المبتدعة، وكان في كل يوم جمعة يتطهر ويأتي باب زنزانته ويطلب الخروج لأداء الجمعة، والسجان يردده فيقول: والله إنك تعلم أن المنع ليس مني، وظل دأبه هكذا فترة.

وحاول الطاغية ابن أبي دؤاد أن يستغل قهره وسجنه ليضغط عليه فأرسل له من يقنعه ويناقشه لكنه كان في أسمى حالات إبائه شامخا قويًا عصيًا على الذل والقهر، وأكبر من أن يكون مطمعًا لطاغية مستغل، وهو ما دعا أعداءه أن يزيدوا في عذابه وقيوده فلفوه بالحديد من أعلاه إلى أدناه،

واشتد الأمر فلم يقدر على الحركة، حتى الوضوء والتطهر لم يكن يستطيعه إلا بصعوبة، فتأثرت نفسيته، حتى أنه بعث برسالة للإمام الذهلي، وهو من كبار علماء الحديث في خراسان قال فيها: يا أبا يحيى قل لإخواني أصحاب الحديث، وطلبة العلم أن يدعو الله عز وجل أن يفك كربتي، فلقد كبلوني بالحديد حتى إني لم أعد أتطهر وأصلي كما ينبغي، عسى الله أن يفرج عني ما أنا فيه بدعائهم، فلما قرأها على طلبة الحديث في حلقته، بكوا لحاله ولهجوا بالدعاء له أن يفك الله كربه ومحنته.

ويأتي الفرج من رب السماء لتخرج روحه الطاهرة الباسلة الأبية إلى ربها وهي منتصرة عزيزة قوية تخرج وهي تغيظ المجرمين أنهم لم يستطيعوا أن ينالوا منها أو يقهروها، ليظل صاحبها قدوة مبهرة على مر الزمان، وشعلة مضيئة لأمثاله من العمائم التي تتبع الحق وتنصر الصدق، وترفع راية الهداية، وتواجه الظلم وأنصاره، وتقود الأمة للرفعة والرقي.

ومات الإمام البويطي رحمه الله في سجنه وقيوده وحديده سنة ٢٣١هـ.

يقول الأستاذ جمال بدوي: كان البويطي من العلماء يخفض للضعفاء جناح الذل.. ويرفع الهامات في وجه الجبارين والطغاة.

سلطان العلماء وبائع الأمراء

يعد الإمام العز بن عبد السلام من أبرز الشخصيات الإسلامية التي حققت تلك الصورة التي نبحث عنها لعزة العلماء وجسارتهم على قول الحق وتقديم رقابهم فداء لمصلحة الأمة ومن قبلها فداء للحق وكلمته.. عاش العز بن عبد السلام في القرن السابع الهجري، وكان غزير العلم متبحرًا في مختلف علوم الشريعة، استطاع أن يخلد اسمه في التاريخ بمواقفه الشجاعة في وجه الحكام الجائرين الظالمين، الذي لم يكن يخشاهم ولا يخشى بطشهم ولا عسفهم، بل كانوا هم الذين يخشونه ويحسبون له ألف حساب، لحب الناس له وقربهم منه وتعظيمهم لشأنه وإكبارهم لمكانته.

ولد الإمام العز بمدينة دمشق سنة ٥٧٧ للهجرة لأسرة فقيرة تعاني شظف العيش وألم الحاجة، ولما توفي أبوه ذهب ليعمل في نظافة المسجد وحراسة نعال المصلين.. ولما كان قريبًا من المسجد كان يصل لسمعه كلام الشيوخ في دروسهم التي يلقونها في ساحته.. وأسره هذا المشهد، وتمنى أن يكون من المستفيدين لهذه الدروس، والناهلين مما فيها من معرفة.. ولما حاول الاقتراب طرده الناس ووبخوه.. وهكذا كانت طفولته مرة بحرمانها وشقائها.. وأمام هذا الاقصاء والحرمان من حلقة العلم، أخذ يبكي حينما عزت عليه نفسه، فشاهده الشيخ الفخر ابن عساكر، وهو صاحب حلقة علمية بالمسجد، وعرف سبب حزنه ودموعه، فخفف عنه الشيخ وبشره بأن يبدأ معه في رحلة طلب العلم من الغد، واستطاع هذا الشيخ أن يكون نقطة التحول في حياة العز حينما ألحقه بالمسجد على نفقته الخاصة، ليبدأ تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن.!

لزم العز شيخه ابن عساكر، وواصل الليل بالنهار في طلب العلم حتى أصبح من كبار العلماء في المذهب الشافعي، ورحل إلى بغداد، وتبحر في مختلف علوم الشريعة ولقبه تلميذه الكبير ابن دقيق العيد (سلطان العلماء) وبهذه المكانة تولّى الخطابة والتدريس في الجامع الأموي الكبير، وتصدر للإفتاء والقضاء والخطابة.

كان العز خطيبًا بارعًا مؤثرًا في مستمعيه بصدق عاطفته، وغزارة علمه، لا يسكت عن خطأ، شديدًا في الحق قوالاً له ولو كان مرًا، لا يهاب سلطانًا ولا ملكًا، وكان لا يعبأ بما يجد في سبيل ذلك من مشكلات وعقبات، لأنه كان يعد نفسه صاحب رسالة.

أدرك دولة الأيوبيين في أوج قوتها و أيام ضعفها، وأدرك دولة المماليك في نشأتها وعزها، عاصر بعض الحملات الصليبية على فلسطين ومصر، وأدرك غارة التتار على الدولة العباسية في بغداد، وشاهد كذلك هزيمتهم في عين جالوت بفلسطين بقيادة سيف الدين قطز سلطان مصر، بل كان واحدا من صانعي هذا الانتصار.. وكان في كل هذه المراحل التي مرت بالأمة، له تأثيره وحضوره الفاعل، حتى كانت له هذه المواجهة الشهيرة مع الملك الصالح إسماعيل الأيوبي حاكم دمشق، حينما تحالف مع الصليبيين لقتال أخيه نجم الدين أيوب حاكم مصر، مقابل أن يُعطي لهم مدينتي صيدا والشقيف، ويسمح لهم بشراء السلاح من دمشق، ويخرج معهم في جيش واحد لغزو مصر.

ولم يكن للعز أن يقف أمام هذه الخيانة العظمى صامتًا مستكينًا بحجة أنه ولي الأمر وتجب طاعته، كما يفعل كثير من علماء السلاطين المنافقين، ولكنه ثار وأعلن رفضه لهذا المنكر، ونكر انه لهذه الخيانة، لأن أراضي المسلمين ليست ملكًا للحاكم ولا لأبيه أو أمه حتى يهبها لمن شاء،

كما لا يجوز بيع السلاح لأعداء الأمة المتربصين بها، وفي خطبة الجمعة وفي المسجد الكبير، أعلن العز في قوة وصولة رأيه وحكمه، وتجريمه لهذه الفعلة الشنيعة، وأن الملك خائن للأمة يجب خلعة لأنه لا ولاية لخائن.

ولما وصل الخبر للحاكم أصدر أمره بعزله عن الخطابة واعتقاله، ثم أفرج عنه وعزم الهجرة إلى مصر، فلما خرج إليها سنة ٦٣٨هـ، ثار أهل دمشق لخروجه، فبعث إليه السلطان وزيره يساومه فلحق به في نابلس، وطلب منه العودة فرفض، فقال له الوزير: بينك وبين أن تعود إلى مناصبك، وإلى ما كنت عليه وزيادة، أن تنكسر للسلطان وتعتذر إليه وتُقبل يده لا غير، فقال العز في إباء وشمم: والله يا مسكين، ما أرضى أن يُقبل السلطان يدي، فضلاً عن أن أُقبل يده، يا قوم أنتم في وادٍ وأنا في وادٍ، الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به، فقال له الوزير: قد أمرني السلطان بذلك، فإما أن تقبله وإلا اعتقلتك، فقال: افعلوا ما بدا لكم.! واعتقله جنود السلطان في نابلس، وظل في سجنه حتى جاءت جنود مصر وخلصته من الاعتقال.. وإنك هنا لناظر ومتأمل في قوله ورده، حتى تتجسد لك العلاقة الحقيقية والفهم البين لعلاقة العالم بالحاكم حينما يخون ويفرط في مصالح العباد، ويضر بالوطن والأمة، والتي هي على خلاف ما يزعم الفجرة من تشجيع الظلم وتأييد البغي والصمت والذل والانكسار أمام الحكام الخونة البغاة.

وأطلق سراحه وسافر إلى مصر، حيث رحب به الملك الصالح نجم الدين وولاه الخطابة والقضاء، ولكنه مهما لقي من حفاوة الترحيب ومباهج الاستقبال لا يثنيه ذلك عن إخلاصه لدينه وولائه للحق والجهر به وإعلانه، مهما كانت الكلفة، ومهما عظمت التبعات، وهذا ما حدث حينما بلغه أن حانةً تبيع الخمور في القاهرة، وبعد أن تأكد من ذلك خرج إلى واليها نجم الدين أيوب، فشاهد العساكر مصطفين حوله ومظاهر الأبهة بادية عليه،

والأمراء يقبلون الأرض بين يديه ، فالتفت الشيخ الجليل الصادح بالحق إلى السلطان وناداه: يا أيوب، ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أُبوئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور؟ فقال السلطان: هل جرى هذا؟ فقال الشيخ: نعم، الحانة الفلانية تُباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة! فقال الوالي: يا سيدي لم أفعل هذا، هذا من زمن أبي، فقال الإمام: أنت من الذين يقولون: إنا وجدنا آباءنا على أمة؟ فأمر السلطان بإزالة تلك الحانة.. وعندما سأله أحد تلاميذه عندما رجع من عند السلطان وقد شاع الخبر: يا سيدي كيف قلت له ذاك؟ فقال: يا بني رأيته في تلك العظمة، فأردتُ أن أهينه لئلا تكبر نفسه فتؤذيه، فقال تلميذه: يا سيدي أما خفته؟ فقال: والله يا بني استحضرت هيبة الله تعالى، فصار السلطان قُدامي كالقط.!

نعم إنا هيبة الله.. الذي إذا خافه الإنسان، أخاف الله منه كل شيء.. إنه إيثار ما عند الله على الدنيا الفانية ومتعها الذائلة.. إنه تعليم للعلماء من بعده كيف يقابلون السلاطين وينظرون لدنياهم ويوجهونهم في نصحهم ويردونهم للحق في عزة وشجاعة، ولم يكن حده إلى هذا فقط، فكما اصطدم بالحاكم، جاء صدامه مع أمرائه المماليك الذين امتلكوا الدنيا وتقلدوا مناصب الدولة، وتحكموا بنفوذهم في مفاصلها.. فكانت فتواه الجريئة المدوية أو قل: المزلزلة حين قال: إن بعض أمراء المماليك ليسوا أحرارًا ولا يزالون أرقاء، ولا تصلح ولايتهم وتصرفاتهم في أمور الدولة مالم يُحَرروا، فأخبرهم بذلك، فعظم الخطب وثارت ثائرتهم، فهاجوا وماجوا.. ولكنه صمم على الحق الذي ارتآه.. فاجتمعوا وأرسلوا إليه فقال لهم: يجب أن نعقد لكم مجلسًا، وينادى عليكم لبيت مال المسلمين، ويحصل عتقكم بطريق شرعي.. فرفعوا الأمر إلى السلطان فبعث إليه، لكن الإمام أبى الرجوع عن قراره،

فأنكر السلطان على الإمام فتواه، فغضب وخرج من القاهرة قاصدًا الشام، فلم يلبث أن خرج حتى لحقه أغلب المسلمين، لا سيما العلماء والصلحاء والتجار، فبلغ السلطان الخبر، وقيل له: متى راح ذهب ملكُك! فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيب خاطره، فرجع الإمام، واتفقوا معه أن يُنَادى على الأمراء لبيعهم حتى يحرروا.. وقال له نائب السلطان: كيف يُنادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض؟ والله لأضربنه بسيفي هذا.. فركب بنفسه في موكبه، وجاء إلى بيت الشيخ والسيف مسلول في يده، فطرق الباب، فخرج ابن الشيخ فرأى من نائب السلطان ما رأى، فعاد إلى أبيه وأخبره بما رأى، فلم يكترث الإمام لذلك، وقال: يا ولدي! أبوك أقل من أن يُقتل في سبيل الله! ثم خرج الإمام فحين وقع بصره على النائب سقط السيف من يده، وأرعدت مفاصله فبكى، وأخذ يسأل الشيخ أن يدعو له، وانصاع لرغبة الإمام وتم له ما أراد، ونادى على الأمراء واحدًا واحدًا، وغالى في ثمنهم ما داموا أغنياء، لأن ذلك المال سيستفيد منه الفقراء، وقبضه بالفعل وصرفه في وجوه الخير.

ومن يومها لقب ببائع الملوك.! وكذلك لم ينتهِ دور العز أمام الظلمة والمتجاوزين، وإنما كان له دوره القوي والمؤثر في حرب الأمة، وجهاده لعدوها المتوحش فشارك في الجهاد في سبيل الله ضد التتار الغاشمين.. وكان يحرض السلطان قطز على حربهم، وإشعال نار الجهاد في كل مكان ضدهم، حتى كتب الله النصر للمسلمين في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ.. وتوفي رحمه الله في عهد بيبرس الذي قال حينما شهد جنازته: (اليوم استقر ملكي، لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس اخرجوا عليه، لانتزع الملك مني)!

النووي والمواجهة الحامية

كانت مواجهة صارخة وعنيفة بين الإمام النووي رحمه الله، بتقواه وورعه وخشيته لربه وبين الملك الظاهر بيبرس بصلفه وغروره وتجبره وبطشه بمعارضيه، ولكن أنى لهذا الصلف والغرور، أن يجد طريقه أمام نفس زكية تقية لا تخشى في الله لومة لائم.

يصفه الذهبي رحمه الله بقوله: "كان عديم المثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان لا يبالي في أمره ونهيه لومة لائم، ولا يبالي الإهانة والموت، ولا يكبر عنده أحد عن النصيحة حتى العلماء والأمراء والملوك والجبابرة"

وقال: "كان يواجه الملوك والظلمة بالإنكار، ويكتب إليهم ويخوفهم بالله تعالى .."[1]

ولعل القارئ يعرف مسيرة هذا السلطان، وما له من بطولة ومضاء وجرأة وقوة، فقد كافح الصليبيين في مو اقع مشهودة، وكان له دوره الملموس في القضاء على التتاروكسر أسطورتهم التي أرعبت الدنيا أممًا وشعوبًا.

ولكنه رغم هذا الدور المذكور كان في حكمه وإدارته شديدًا عنيفًا، لا يعرف في حكمة رحمة ولا شفقة.. ويوم أن مات العزبن عبد السلام الذي كان لا يَرهب حاكمًا أو طاغية مهما بلغ سلطانه وعلت قوته، ظن بيبرس وقتها، أن الدنيا قد صفت له بعد موت هذا الخصم العنيد الذي رفض مبايعته بعد خيانته للسلطان قطزفقال يومها:

---

[1] - راجع الامام النووي – عبد الغني الدقر- سلسلة أعلام المسلمين

(اليوم استقر ملكي فإن هذا الشيخ لو قال للناس اخرجوا عليه لانتزع مني ملكي)! كان يظن أن الدنيا قد صفت له، و أنه لم يعد هناك علماء ثائرون شجعان يقولون قولة الحق ولو ملأت السيوف ببوارقها كل الأمكنة، حتى فوجئ بنموذج جديد، يقول له: لا، وصورة متكررة من طراز العز بن عبد السلام، ذلك الذي فرح لموته بالأمس، وتيقن أن ملكه ثابت مستقر.

وهو ما حدث وتجلى شاهدًا في قضية الحوطة الشهيرة، التي أريقت فيها الدماء، وذهبت بسببها أرواح كثير من العلماء.. فماذا كان من أمر النووي حينما جاء دوره ليفتي بر ايه الفقهي بعد هذه المذابح والأهاويل، التي لم تكن جريرة أصحابها إلا أنهم قالوا للسلطان: لا، ولم ينزلوا على هواه، ولم يحققوا مأربه فيما يريد.؟ هل نحى النووي منحاهم، أم زُعر و انزوى وجانب ما لا طاقة له به؟!

كان الظاهر بيبرس كما حُكى عنه شديد التمسك بالشرع والجهاد و إقامة الأمة على الشريعة، فقد قال عنه ابن كثير: "كان متيقظًا شهمًا شجاعًا، لا يفتر عن الأعداء ليلاً او نهارًا، بل هو مناجز لأعداء الإسلام وأهله، معني بلم شعثه واجتماع شمله، وبالجملة أقامه الله في حلوق المارقين من الفرنج والتتار والمشركين، و أبطل الخمور ونفى الفساق من البلاد، وكان لا يرى شيئا من الفساد والمفاسد إلا سعى في إزالته بجهده وطاقته"(١)

وقد تصيبنا الحيرة من هذا التناقض فكيف لرجل على هذا الأمر من العناية بالدين ولزوم الجهاد والدفاع عن حرمات الله ليقف في وجه العلماء حينما يصدحون بالحق، ويستهتر بهذه الدماء الطاهرة الغالية التي لم يكن من ذنب أصحابها إلا أنهم لم يو افقوه فيما أراد؟!

---

(١) البداية و النهاية ج١٣-ص٢٧٦

ويأتي الأستاذ (أبو الحسن الندوي) فيحاول أن يقف بنا على هذا اللبس، ويوضح لنا هذا الإشكال، ويزيل عنا هذه الحيرة وهذا التناقض حيث يقول: "وكان الظاهر بيبرس على كفاءته الشخصية، ودوافعه الإسلامية، وحماسه للجهاد، حاكمًا مستبدًا برأيه، فلا غرابة إذا وجدت فيه بعض مواضع الضعف، مما يتصف به الملوك المستبدون، وإن تاريخه حينما يتحمل بمآثره الجليلة وخدماته الإسلامية، يتسم بخصائص المملكة الشخصية، وأحداث الاستبداد والعناد والإصرار أيضا، وما حدث للإمام النووي معه من معاملة مؤسفة لدليل على ذلك"(١)

فماذا كان من أمره مع الإمام النووي الذي لم يتسرب إليه الخوف، ولم يرتعد من الزعر، ووقف في وجه هذا الجبار يُعلن الحق لا يخشى سيفه أو جلاده؟!

ذكرت كتب التراجم، أن الظاهر بيبرس حينما أراد الخروج إلى قتال التتار بالشام لم يكن في بيت المال ما يقوم بتجهيز الجيش والإنفاق على المقاتلين، فاستفتى علماء الشام في جواز فرض ضرائب على الشعب، لإعانة السلطان والجيش على قتال الأعداء، وتغطية النفقات المطلوبة، وطلب أن توقع فتيا من قبلهم فوقعها كثير منهم، بعضهم خوفا وبعضهم طمعا، وامتنع خلق من العلماء، بل أفتوا بعدم الجواز فعرضوا على السيف وقتلوا، وكان النووي غائبا ، فلما سأل السلطان العلماء : هل بقي من أحد؟ قالوا : نعم بقي الشيخ محي الدين النووي، فطلبه فحضر فقال له : اكتب توقيعك مع الفقهاء، فامتنع الشيخ وأبى، وسأله السلطان: ما سبب امتناعك؟ قال الشيخ: أعرف أنك كنت في الرق للأمير بندقار وليس لك مال، ثم منّ الله عليك وجعلك ملكًا وسمعت أن عندك ألف مملوك، لكل مملوك حياصته من

(١) رجال الفكر والدعوة – أبو الحسن الندوي

الذهب، وعندك مائتا جارية، لكل جارية حُق من الحلي، فإن أنفقت ذلك كله، وبقيت مماليكك بالبتون والصوف بدلاً من الحوائص، وبقيت الجواري بثيابهن دون الحلي، ومع هذا أفتيك بأخذ المال من الرعية؟ فغضب الملك الظاهر من كلامه وقال: اخرج من بلدي يعني دمشق. قال: سمعًا وطاعة.. وانتقل منها إلى بلده نوى وهي ضيعة بأرض حوران، فقالت الفقهاء للملك الظاهر بعد ذلك: إن هذا الذي أمرت بخروجه من دمشق من كبار العلماء والصلحاء وممن يقتدى به، فأعده إلى دمشق فرسم برجوعه إليها فساروا إليه ورغبوه في الرجوع إلى دمشق وقالوا: قد رسم السلطان برجوعك إليها، فامتنع وقال: لا أدخلنها والملك الظاهر بالحياة أبداً.!

وبعد شهر كان الملك الظاهر في نفسه شيء من بعض أمرائه فصنع له شربة مسمومة، ودسها بين شربات غير مسمومة، فلما قصد أن يسقي الأمير تلك الشربة المسمومة، غلط فشرب هو المسمومة فمات، وشرب الأمير غير المسمومة فسلم.. فلما سمع الشيخ محي الدين بموت الملك الظاهر دخل دمشق "(١)

وقيل للملك ما سبب عدم قتلك للنووي؟ فقال: كلما أردت قتله، أرى على عاتقه سَبعين يريدان افتراسي فأمتنع من ذلك.. وكان النووي يقف للظاهر في دار العدل ويراجعه كثيرًا..

يقول شيخنا (محمد الغزالي) رحمه الله معلقًا على الموقف: "ذلك حاكم عظيم انتصب لمحاربة الهمجية الجارفة التي أشاعها التتار في الأرض، والتي أصاب الإسلام منها بلاء كبير وشر مستطير، طوى لواء الدولة العباسية في بغداد، ويوشك ان يطوى أعلام الإسلام المرفوعة في دمشق والقاهرة وغيرها، ويريد الحاكم باسم الإسلام وفى سبيل هذه الغاية النبيلة أن يستولى

(١) كتاب الإلمام لمحمد بن القاسم النويري (ج ٤ صـ ٨١ : ٨٣)

على ما يشاء من الأموال والثروات، فيتصدى له عالم باسم الإسلام ولوجه الله، ويقول له: على رسلك.. نح مظاهر الترف من حولك حتى إذا استنفدت ما يتمتع به الأغنياء من الكماليات النافلة، عدت إلى جمهور الشعب فصادرت ما عنده من ضرورات لازمة، ويوم تفعل ذلك يعطيك الشعب قوته قرير العين، كما أعطاك دمه رضي النفس، أما الافتيات على الفقراء وترك الناعمين المترفين يأكلون كما تأكل الأنعام، فذلك ما لا يرضاه الإسلام !

يقول الندوي: "لما أراد الظاهر بيبرس مصادرة الاقطاعات وأراضي الإقطاعيين في مصر والشام خالفه الإمام النووي مخالفة عنيفة، ولم يتشجع على مصادرتها، بل تركها على سابق حالها، ولم يغير بها أو يعدل.. كان بيبرس وخلفاءه من الملوك يحاولون أن تنال قوانين مملكتهم وأحكامهم وإجراءاتهم تأييد العلماء والمعاصرين ولا ينفذا أمرًا إلا بالاستشارة معهم واسترضائهم، وقد ألغي في بعض الأحيان سن قانون جديد صدر من الملك أو تنفيذه حين خالفه العلماء"[1]

لقد كان النووي صاحب علم غزير، ولكن هذا العلم لم يكن ليغرر به ويعميه عن مسؤوليته أمام ربه وأمام التاريخ نحو دينه وأمته، فكان نعم العالم العامل والفقيه الرباني.. الذي لا يعرف معنى الخوف إلا من الله.

---

[1] - الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين

الخبوشاني الصادع بالحق

نحن الآن مع سيرة عالم جليل، كان وقورًا مهيبًا، عالمًا شجاعًا، جريئًا في الحق مؤمنًا صادقًا، كان السلاطين يخافونه ويعظمونه، لأنه لا يخشى في الله لومة لائم، وفي أحداث حياته ومواقف أيامه، نلمس تلك الجرأة وهذه الشجاعة، التي لا يقوى عليها إلا الصادقون، الذين وهبوا حياتهم لدين الله وأخذوا أنفسهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مهما كانت العقبات والعوائق، إنه (الفقيه الكبير ، الزاهد نجم الدين ، أبو البركات محمد بن موفق بن سعيد ، الخبوشاني الشافعي ، الصوفي)[1] الذي لا يعرفه الكثيرون، ولا يجري اسمه على الأسماع، وأصله من "خبوشان" من قرى نيسابور، وولد قربها سنة ٥١٠ هـ الموافق ١١١٦م، كان فقيهًا شافعيًا، بارعًا في الفقه وصنّف فيه "تحقيق المحيط" في الفقه، حتى قال ابن خلكان: «كان يستحضر كتابه المحيط وهو ستة عشر مجلدًا»، قدم إلى مصر فأقام بها و أفتى وصنّف الكتب، قال السخاوي: «ردَّ الخبوشانيّ على أهل البدع واستتابهم وأظهر معتقد الأشعرية بالديار المصرية». وقال ابن خلكان: (كان السلطان صلاح الدين يقربه، ويعتقد فيه، ورأيت جماعة من أصحابه، فكانوا يصفون فضله ودينه وسلامة باطنه)[2]

قال عنه الذهبي: (الفقيه الكبير، الزاهد نجم الدين، أبو البركات محمد بن موفق بن سعيد، الخبوشاني الشافعي، الصوفي)[3]

---

[1] - سير أعلام النبلاء - الذهبي

[2] - المرجع السابق

[3] - سير أعلام النبلاء للذهبي

وأغلب المصادر تؤكد أنه ولد سنة ٥١٦هـ، وتعلم الفقه الشافعي على يد أكبر تلاميذ الإمام الغزالي وهو محمد بن يحيى، كما حدّث عن هبة الرحمان ابن القشيري، و أنه وفد إلى مصر قبل سقوط الدولة الفاطمية بسنتين، عام ٥٦٥هـ وفيها تُوفي ودُفن عام ٥٨٧هـ.

ولعل هذا الاسم لهذا العالم الشجاع والصداع بالحق، لا يعرفه الكثيرون، ومعرفة سير العلماء الأحرار والصالحين الشجعان، تغيب عن حياتنا كمسلمين، وتتم التعمية عنها عمدًا، حتى نتخيل صورة واحدة للعلماء يتم الترويج لها وتسويقها، وهي صورة العلماء السلبيين المستسلمين المنبطحين العاجزين قليلي الحيلة، لكننا نحاول جاهدين أن نحيي بعضًا من سيرة هؤلاء الشجعان الأشاوس لنقر الحق ونصحح المفاهيم.

قدم الخبوشاني رحمه الله من بلاد فارس من خبوشان إحدى قرى نيسابور ونزل بمصر وعاش بها، وكان سني المذهب حريصٌ على محاربة التشيع الذي انتشر في بلده الأم، ورغم أن الخبوشاني رحمه الله عاش في بيئة يغلب عليها التشيع، لا أنه كان يتعصب لمذهبه، ويفكر جديًا في مواجهة الشيعة و أفكارهم، التي رآها تخالف جادة الصواب وتخرج عن روح الدين، وعندما بلغ (٤٩) من عمره، قرر أن يسافر إلى مصر لمواجهة الفاطميين في عقر دارهم، فقال كما نقل الذهبي: " أصعد إلى مصر، وأزيل ملك بني عبيد اليهودي"، وكان رحمه الله يجمع إلى قوة البيان والحجة، قوة الشخصية أيضًا، وهو ما جعل الفاطميين يخشونه، ويحرصون على استرضائه ومهادنته، نقل المناوي في كتابه (الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية) والذهبي في سير أعلام النبلاء: أن الفاطميين أرسلوا إليه مالاً، لكن الخبوشاني رد المال، وضرب رسول الفاطميين بقوة على صدره ورأسه، ثم لم يلبث أن شتم الخليفة نفسه جهرةً بلا تحسب أو خشية!

لقد كان الرجل رافضًا لأي تفاهم أو حوار مع الشيعة، لوقوفه على فساد عقيدتهم، وخبث مقاصدهم، وهو ما جعل صلاح الدين الأيوبي يجد فيه بُغيته، حينما كان يعمل على إزالة ملك الفاطميين والعودة بمصر إلى الخلافة العباسية، ودوحة الإسلام السني والعقيدة الصحيحة، حيث (استفتى الفقهاء في ذلك، فأفتاه جماعة من الفقهاء، وكان نجم الدين الخبوشاني من جملتهم، لكنه بالغ في الفتيا وصرّح بتعديد مساوئهم، وسلب عنهم الإيمان وأطال الكلام فوق ذلك)[1]

وعندما هم بخلع العاضد آخر ملوك الفاطميين، وأراد أن يجعل خطباء الجمعة يدعون للخليفة العباسي في آخر خطبهم، نراه قد تهيب هذا الأمر، لكن الخيوشاني وقف أمام أحد المنابر بعصاه، وأمر الخطيب أن يدعو لبني العباس ففعل، وانتهى حكم الفاطميين لمصر، وانتهى معه عهد الوهم والخرافة واستغلال النسب المزعوم إلى آل البيت، ولا زالت حياته وسيرته تتغنى بتلك الواقعة، وترن روعتها في سمع الزمان، عندما ادعى العزيز بالله الفاطمي، أنه يعلم الغيب فكتب له أحد المصريين بطاقة وجعلها على منبره فلما صعد إليه قرأ البطاقة وإذا مكتوب فيها:

بالظلم والجور قد رضينا...وليس بالكفر والحماقة

إن كنت قد أوتيت علم غيبٍ...بين لنا صاحب البطاقة

وفي كتابه "أعلام في التاريخ الإسلامي في مصر" يذكر الأستاذ (سامح كريم) أن علاقة صلاح الدين الأيوبي بالخبوشاني رحمه الله كانت علاقة محبة وتوقير واحترام بالغ، بل إن صلاح الدين كان يخاف من دعوة هذا الرجل الذي وقر في نفسه أنه من أولياء الله الصالحين.

---

[1] - مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ابن فضل الله العمري

فيقول: "أنه لما خرج صلاح الدين لقتال الفرنجة في مدينة الرملة بالديار الشامية ذهب أولاً إلى دار الإمام الخبوشاني ليقوم بتوديعه فلما رآه الإمام طلب منه أن يبطل بعض المكوس التي كانت تُؤخذ من الحجاج، فرفض صلاح الدين فغضب الخبوشاني وقال "قم لا نصرك الله" ووكزه بعصاه بشدة، حتى أن قلنسوة صلاح الدين وقعت من رأسه، والعجيب أن السلطان لم يفعل شيئاً للإمام، بل سار إلى الرملة مع جنده وحاقت بالمسلمين الهزيمة في تلك المعركة!

وثمة واقعة أخرى تُظهر لنا شجاعته وجرأته في الحق، وصلابته في أي ظلم أو جور حين علم بأن ابن شقيق صلاح الدين واسمه تقي الدين يبيع للناس "المزر" وهو شراب مسكر يشبه البيرة، فما كان منه إلا أن كتب لصلاح الدين يطلب منه أن يَنهى ابن أخيه عن بيع هذا الشراب، فلما قرأ السلطان الكتاب أحضر ابن أخيه وقال له: "يا بني لا طاقة لنا بالخبوشاني اذهب إليه وترضاه" فذهب تقي الدين إلى بيته وعند بابه أرسل من يُعلن عن حضوره واعتذاره قائلاً: "تقي الدين يسلم عليكم" فرد الإمام: " بل قل شقي الدين! لا سلم الله عليه" فقال الرسول: "إنه يعتذر" فرد الإمام: "إنه يكذب" وامتنع من مقابلته، فما كان من تقي الدين إلا أن توقف عن بيع الشراب خوفًا من غضب الخيوشاني رحمه الله.

ونُقل عن المناوي أن الإمام عاش حياته كلها لم يأخذ من الملوك درهمًا، وعندما توفي كفنوه في كساءه الذي جاء به من خبوشان، وقد أوصى أن يدفن بجوار الإمام الشافعي ﷺ.

الإمام المسلوخ!

بهذه التسمية عُرف صاحبها، وبهذا اللقب ذكره التاريخ، وبهذه الصفة رُويت سيرته، كبطل ثائر، وصامد عظيم، ورمز أسطوري في الثبات على المبدأ والتمسك بالحق، ومواجهة الباطل، والتضحية في سبيل الله.!

وبقدر ما حملت لنا هذه الفدائية النادرة من صور مثلى للبطولة الفذة، بقدر ما كشفت لنا عن حقيقة الشيعة الفجرة المغالين في دين الله، الذين يُظهرون حقدهم وعداءهم لأهل السنة في كل عهد وزمان.. فيرون بغضهم آكد وأوجب من بغض اليهود والنصارى، ويعتقدون فيهم، أنهم أسوأ وأخبث من الشيطان على هذه الأرض، ويجعلون من قتالهم قربة للحسين الذي كثيرًا ما ظلموه بما اقترفوا باسمه من جرائم وآثام.!

وهاهم الأنجاس نرى جورهم وبشاعتهم كلما قامت لهم دولة وانتصب لهم كيان، وهاهم أخوتنا في سوريا رأيناهم وعرفناهم وهم يستبيحون دماءهم وأعراضهم، ويذبحون منهم، الألوف ويحركون عليهم قوى الشر التي تشن الغارات وترميهم بالمقذوفات، ليخرجوهم من أرضهم هاربين فارين مذعورين من موت محقق وهلاك أكيد..

وعودة بالتاريخ إلى دهر مضى.. لنرى فيما نقرأ صورًا من وحشيتهم وقذارتهم، وحقدهم المتأجج على أهل السنة، بل نرى قلوباً هاج فيها الغل، ونزعت منها الرحمة، وأعماها الباطل، فلم تجد سبيلاً لتنفس عن نفسها إلا بهذه الجرائم التي يتندربها الزمان!

إنها قصة الإمام المسلوخ.. واحدة من هذه القصص النادرة التي جسدت نفسية الشيعة وصورت في جلاء طبيعتهم الإجرامية.. تلك الطبيعة، وتلك الصورة، التي كنا نراها كل يوم، فيما صدروه لنا من مقاطع الذبح

الأليم لإخواننا المستضعفين الذين يتفننون في التمثيل بهم، فيشاهد العالم كله مأساتهم، ويسمع أنينهم ويقابل غوثهم بالصمت والتبلد، ليعلن بوضوح أننا في عصر هزمت فيه القيم، وانتحرت فيه الفضيلة، وتبددت فيه كرامة الإنسان.!

استطاع الملعون (عبيد الله المهدي) أن يؤسس دولة تحمل حلم الشيعة الفاطميين، وتحقق باسمها أطماعهم التوسعية، وانتقل من مرحلة التأسيس إلى التمدد شرقًا وغربًا لنشر دعوة الزيف، وفكرة الباطل، وتصير زورًا ما سمي بالخلافة الفاطمية، ومن بعده سار أبناءه على نهجه وسياسته التوسعية، حتى استطاع المعز لدين الله، دخول مصر يوم الجمعة (٨) من شهر رمضان عام (٣٦٢) هـ، بعد أن سبقه إليها قائده (جوهر الصقلي) فمهد له الأمور، وأقام له الدعوة، وبنى له القاهرة فنزلها، وفي الوقت الذي كان هؤلاء الأنجاس يدينون بالمذهب الشيعي، كان أهل مصر وفلسطين وسوريا يعتنقون المذهب السني، وحينما تمكن هؤلاء الفجرة من البلاد والعباد، وأظهر طاغيتهم المعز لدين الله الدعوة لنفسه وأعلن مذهبه الرديء ودعا إليه.. أجبروا علماء المسلمين على لعن أعيان الصحابة على المنابر، وبدلوا الأذان إلى حي على خير في العمل، وفي عهد الحاكم بأمر الله أصدر عام ٣٩٥هـ أمرًا بنقش سب الصحابة على جدران المساجد وفي الأسواق والشوارع والدروب، وصدرت الأوامر إلى العمال في البلاد المصرية بمراعاة ذلك، وأبطل التراويح وصلاة الضحى، وأمر بالقنوت في الظهر بالمساجد.. أما سياستهم مع اليهود والنصارى، فقد بلغت قمة التسامح والمودة، فقد استعان المعز بكثير من الأطباء اليهود، وما لبث أن عظم نفوذهم في بلاطه، وصار يعقوب ابن كلس الذي أسند إليه المعز بعض دواوينه، يتحيز إلى إخوانه في الدين.. وارتقى يعقوب في المناصب حتى أصبح وزيرًا للعزيز ابن المعز، كما اتسم عهد العزيز

بالتسامح مع النصارى، وغض بلاطه منهم، وبالغ في إكرامهم لِما كان بينه وبينهم صلات النسب.

وحينما أقدموا بزحفهم على الشام واستولوا عليها، فر عدد كبير من الصلحاء لما سمعوا عنهم من شدة بطشهم وقسوة تنكيلهم، وكان ممن هرب منهم من العلماء، الإمام النابلسي، الذي فر من الرملة إلى دمشق.. وهو الإمام أبو بكر النابلسي، محمد بن أحمد بن سهل بن نصر، أبو بكر الرملي الشهيد المعروف بابن النابلسي.. الذي نَحُومُ حول صموده في هذه السطور، والذي حاولَت بعض كتبهم الزائفة، أن تنسبه للقرامة الذين حاربهم المعز و أنه من المقربين إليهم ومن أشياعهم، في محاولة خبيثة ماكرة، لتشويه صورته، وتبرئة الطاغية المعز من جريمته البشعة التي اقترفها في حقه، ولكنه ﷺ كان أحد العلماء العظام الثابتين الثائرين في وجه الظلمة والطغاة البغاة، حيث كانت محنتهُ عظيمة، وبلائه غير مسبوق لكنه استطاع أن يكون آية في الثبات ومثلاً لا يتكرر في الصلابة ونُصرة الحق والتضحية الفذة بالروح والنفس في سبيل الله.! قيل عنه: كان عابدًا صالحًا زاهدًا، قوالاً بالحق، وكان إمامًا في الحديث والفقه، صائم الدهر، كبير المنزلة عند الخاصة والعامة، وكان مناضلاً حرًا شريفًا لا يرضى بالضيم، والدنية في دينه، أعطى صورة رائعة للعالم العامل الرباني المجاهد، الذي يقود الأمة في كفاحها، ويتمثل في شخصه نضالها، ليكون صورة نافرة مغايرة من هؤلاء الإمعات، الذين شوهوا مقام العلم وأهله، وارتموا تحت أقدام السلاطين يقبلون أحذيتهم وينحون عنها الغبار بعمائمهم الدنيئة.

كان عالمنا الجسور في قلب المعركة ومقدمة النزال، وكان يدفع الناس لقتال الفاطميين، وكانت له قولته الشهيرة: لو كان في يدي عشرة أسهم، لرميت واحدًا إلى الروم وتسعة إلى هذا الطاغي.!

قدر لهذا العالم الأبي، أن يتعرض لهذه المحنة التي تقشعر لها الأبدان وتتمعر لهولها الجلود والقرائح، وكانت البداية بعد أن تغلب حاكم دمشق أبو محمود الكتامي على أعداء الفاطميين، ولم يبق له إلا مهمة القبض على الإمام النابلسي، عدوهم الأكبر والمحرض عليهم، والداعي لقتالهم، فوقع في أسره وحبسه في رمضان، وجعله في قفص من الخشب.

ولما وصل قائد جيوش المعز إلى دمشق، سلّمه إليه حاكمها، فحمله إلى مصر، ومثل بين يدي المعز، ودار الحوار الرهيب الذي يعكس هذه الصورة الخرافية في استهجان الباطل والاستخفاف بالطغاة حين سأله المعز بقوله: بلغنا أنك قلت: إذا كان مع الرجل عشرة أسهم وجب أن يرمي في الروم سهمًا وفينًا تسعة! فقال الإمام النابلسي: ما قلت هكذا.! ففرح القائد الفاطمي، وظن أن الإمام سيرجع عن قوله، ثم سأله بعد برهة: فكيف قلت؟ قال الإمام النابلسي بقوة وحزم: قلت: إذا كان معه عشرة وجب أن يرميكم بتسعة، ويرمي العاشر فيكم أيضًا.! فسأله المعز بدهشة: ولم ذلك؟! فرد الإمام النابلسي بنفس القوة: لأنكم غيرتم دين الأمة، وقتلتم الصالحين، وأطفأتم نور الإلهية، وادعيتم ما ليس لكم.

ونطق الرجل بالحق، وجابه الطغاة الذين لم يملكوا أن ينزلوه على باطلهم، فما كان منهم إلا أن لجأوا إلى التصفية الجسدية، تلك التي نعرف ونتأكد أنها سبيل الضعفاء، ووسيلة الفشلة المهزومين، الذين يُعييهم الحق ويُفحمهم دويه.

لقد أمر بإشهاره في أول يوم، وفي اليوم الثاني ضربوه ضربا شديداً بالسياط، وفي اليوم الثالث كان مالم يخطر ببال أحد لقد سلمه هذا الطاغية الذي يقطر بالحقد والكره لعلماء المسلمين، إلى جزار يهودي وأمره أن يسلخه بعد رفض الجزارين المسلمين، فسلخه اليهودي المتوحش من

مفرق رأسه حتى بلغ الوجه، فكان يتحمل ويصبر ويذكر الله، حتى بلغ العضد، فرحمه السلاخ وأخذته رقة عليه، فوكز السكين في موضع القلب، فقضى عليه، وحشي جلده تبناً، وصُلب، وقتل النابلسي في سنة ٣٦٣ من الهجرة.

ومما يحكى من مظاهر ثباته: إنه لما أُدخل مصر، قال له بعض الأشراف ممن يعانده: الحمد لله على سلامتك! فقال: الحمد لله على سلامة ديني وسلامة دنياك! ولم يكن يردد وهو يُسلخ إلا قوله تعالى: ﴿ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾[1]

وقيل من كراماته: أنه لما سُلخ كان يُسمع من جسده قراءة القرآن.! وذكر ابن الشعشاع المصري: أنه رآه في النوم بعدما قُتل، وهو في أحسن هيئة. قال: فقلت: ما فعل الله بك؟ قال:

حباني مالكي بدوام عزٍ** وواعدني بقرب الانتصارِ

وقربني وأدناني إليه ** وقال: انعم بعيشٍ في جواري[2]

---

[1] - الإسراء :٥٨

[2] - تاريخ دمشق لابن عساكر

الجبرتي.. صوت الحرية الخالد

في بيئة دينية علمية ثقافية نشأ الشيخ الجليل المؤرخ (عبد الرحمن الجبرتي) فحفظ القرآن في الحادية عشر من عمره، وتلقى دراسته في الأزهر الشريف على يد علمائه الكبار الأجلاء من أصدقاء أبيه، وكان متصوفًا ملتزمًا بالسنة، وليس من هؤلاء المشعوذين المبتدعين الذين يدعون التصوف وهو منهم براء.!

عاصر الجبرتي فترة حكم المماليك قبل الحملة الفرنسية وعاصرها حين مجيئها لمصر، وسجل أحداثها ولحظات خروجها، وعايش كذلك التحولات السياسية ودفع الشعب بمحمد علي لسدة الحكم، ثم تصفيته لكل من مد إليه يد العون والمساعدة، وعاصر التغييرات التي قام بها، و انتقد كثيرًا من تصرفاته، مثل نفيه للسيد عمر مكرم، وقتله لقواد الثورة الذين جعلوه حاكمًا، وضربه للعلماء بعضهم في بعض، ومذبحة المماليك الشهيرة ومصادراته لأراضي الأوقاف وضمها إلى حيازة الدولة، وحروبه ضد الوهابيين، والتكاليف التي أنفقها في هذه الحروب.. كل هذه الانتقادات التي وجهها الجبرتي للحاكم الجائر محمد علي، كانت صوت الحرية الذي مثله علماء الأزهر، في وجه السلطان الغشوم.. بل كانت إعلاءً لصوت الحق أمام صولة الباطل.. وكانت جرأة مدوية ضد حاكم غادرٍ خبيث، يبطش بكل من يخالفه وينكل بكل من ينتقده.! لكن هذا العسف لم يكن ليخيف الجبرتي الذي يعرف دوره كعالم، في حماية الأمة وإظهار الحق والجهر بكلمته في وجه الطغاة.!

كان الجبرتي متواضعًا لا يذكر نفسه دومًا، ولا يوقع على ما يكتب إلا بقوله (الحقير)، وكان رقيق العاطفة نبيل الخلق.. وكان قوالاً للحق يَكره

الظُلم ويُحب العدل، فيذكر ظلم المماليك وما يصدر عنهم من تصرفات وأعمال توجب النقد.. كما انتقد العثمانيين ووصف مظالمهم وميل بعضهم للدنيا، ولم يمنعه النقد المستمر، أن يصف المحاسن لكل من ينقده.. لقد كان منصفًا وهي السِمة العظمى التي يتحلى بها المؤرخ الحصيف، وينتهج الأمانة والموضوعية والعزوف عن التعصب والتحيز الأعمى.. وهو نفس ما فعله حتى مع الفرنسيين الذين احتلوا أرضه وقتلوا شعبه.!

لقد واجه الجبرتي محمد علي بكثير من فظائعه البشعة، ومنها هذه الحادثة التي حدثت عام (١٢٣٤هـ) فيقول: " كان الباشا – أي محمد علي – بجهة الإسكندرية لحفر ترعة الأشرفية – المحمودية - فأمر حكام الجهات بجمع الفلاحين للعمل، فكانوا يربطونهم بالحبال قطارات . وينزلون بهم في المراكب . وتعطلوا عن زروعهم، وقاسوا بشدة بعد رجوعهم في المرة الأولى، ومات الكثير منهم من البرد والتعب، وكل من سقط أهالوا عليه من تراب الحُفر (ولو فيه الروح) ولما رجعوا لبلادهم للحصيد طولبوا بالمال، وزيد عليهم عن كل فدان حمل بعير من التبن وكيلة فول، وأخذ ما يبيعونه من الغلة بالثمن الدون، والكيل الو افر، ثم يجيء الطلب للعودة إلى الشغل في الترعة، ونزح المياه التي لا ينقطع نبعها من الأرض، وهي في غاية الملوحة، والمرة الأولى كانت في شدة البرد، وهذه المرة الثانية في شدة الحر، مع قلة الماء العذبة فيقلونها بالرو ايا على الجمال مع بعد المسافة)

ولم يقف نقد الجبرتي لمحمد علي ونقل صورته الظالمة للتاريخ عند شخصه فحسب.! وإنما انتقد رجاله وعماله، فقد جمع الحاكم حوله مستشارين أجانب اتسموا بالسوء والغلظة وظلم الشعب، وليس بينهم رجل مخلص كالسيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي! حتى أن الجبرتي أطلق عليهم لفظ الكلاب فيقول:

(إنهم ترأسوا، وعلت أسافلهم، ولبسوا الملابس الفاخرة، وركبوا البغال والرهوات، وأخذوا بيوت الأعيان التي في مصر القديمة وعمروها وزخرفوها، وعملوا فيها بساتين وجنائن، وذلك خلاف البيوت التي لهم بداخل المدينة ، ويركب الكلب منهم وحوله وأمامه عدة من الخدم والقواسة[1] يطردون الناس من أمامه ومن خلفه) وهكذا يصفهم الجبرتي بالكلاب ليعكس مدى الوضاعة التي عاملوا بها الناس.. ثم يصف مظالم واحدٍ منهم وهو (سليمان أغا السلحدار) فيقول: (كان يتمم عمائره في أسرع وقت لعسفه وقوة مراسه على أرباب الأشغال والموانة، ولا يطلق للفعلة الرواح، بل يحبسهم على الدوام إلى باكر النهار، ويوقظهم آخر الليل بالضرب، ويبتدئون العمل من وقت صلاة الفجر إلى الغروب حتى في شدة الحر في رمضان، وإذا ضجوا من الحر والعطش أحضر لهم السقاء ليسقيهم)

إن هذه الانتقادات من هذا العالم المنصف الحر، لم يكن للطاغية محمد علي أن يتقبلها بصمت وترحاب، فإذا به يدبر كيده بليل حتى يؤذي الشيخ ويضربه في مقتل.. "لقد أصيب الجبرتي في أخريات أيامه بمحنةٍ قاسية ففي صباح ٢٨ رمضان عام ١٢٣٧هـ -١٨٢٢م وكان ابنه خليل عائدًا للبيت بعد صلاة الفجر فخرج عليه جماعة أخذوا يضربونه حتى قضوا عليه وخنقوه، وتناقل الناس والمؤرخون من بعدهم شائعات عن اشتراك مقربين من محمد علي في هذه المؤامرة، ولما علم الجبرتي بما حدث لولده وموته على هذه الصورة، وهو بين المرض والشيخوخة، أصيب بنازلة شديدة حطمت حياته، فترك الكتابة والتأليف و انقطع عن القراءة وألح عليه الحزن، وأكثر من البكاء حتى ذهب بصره، وبقي في داره حزينًا أعمى إلى أن و افاه الأجل عام (١٢٤١هـ -١٨٢٥م) وقيل: إنه مات مقتولاً بمكيدة من محمد علي.. وليت هذا

---

[1] - رماة السهام

فحسب.. فعقب موته احترق بيته بالصنادقية واحترقت معه المكتبة العظيمة الحافلة التي تركها له أبوه، والتي زاد هو عليها زيادة كبيرة، كما يذكر بعض المؤرخين، أن جزءًا من تاريخ الجبرتي كان يتضمن حوادث ما بد سنة (١٢٣٦هـ) ودفن الجبرتي مع أبيه ببستان العلماء"[١]

ولأنه الإنسان النبيل، والعالم الشهم النزيه، أبت عليه نفسه أن يتغاضى عن حسنات الطاغية، فإذا به يذكر بعض ما قدمه من أعمال توجب الشكر والمدح، حين سجل له إنشاءه لمصانع البارود، وسبك المدافع وصنع القنابل، وتشييد السفن ومدارس الهندسة والطب، ومصانع نسج القطن والحرير والصوف والجوخ وإعداد المخارط والسندلات والمناشير والآلات الغربية التي توجد في الغرب.! كما جمع ٤٠٠٠ غلام من أبناء البلد ليتعلموا تحت أيدي المهرة من الأجانب ويتشربوا منهم الصنعة والمهن، ويأخذوا أجرًا يوميًا، كما أجبر الناس على زرع شجر التوت على ضفاف الترع والأنهار، واستقدم اللبنانيين ليعلموا الفلاحين تربية دودة الحرير، فدعا (٣٠) أسرة لبنانية ووزعها على المديريات البعيدة، فكانت النتيجة ممتازة شجعت على مضاعفة الأشجار و أثبت الباحثون أن (١٥٠,٠٠٠) من العمال برعوا في نسج الحرير وهيأوه للتصدير.!

ويرحل الجبرتي، ويترك لنا هذا التاريخ العظيم الذي كان نقلاً أمينًا لأحلك الفترات في تاريخ مصر.. ولم يكن مجرد كتاب أو كلمات، ولكنها كانت صرخة مدوية، وكلمة حق جريئة، وقف بها عالم أبي مخلص، في وجه طاغية جبار، حتى ناله كثير من الأذى ودفع حياته وحياة ولده، ثمنًا لجرأته وصدقه وإخلاصه للأمة والتاريخ والدين والضمير.!

---

[١] - محمود الشرقاوي - مصر في القرن الثامن عشر

الأزهر معقل الثورة

لهذه الأسباب غُيب دوره.!

ولهذه الأسباب كان لابد أن يغيب دوره.!

فالمعركة حينما يقودها دين.. لن ينتصر فيها باطل.. والتاريخ يحكي وينذر.!

لقد حاول بعض الخونة لتاريخ وتراث أمتهم المسلمة، من بقايا القوميين والشيوعيين، أن يفتروا على علماء الأزهر عند دخول الحملة الفرنسية واحتلالها لمصر، وصوروا للناس صورة ظالمة كاذبة، وادعوا زورا أن علماء الأزهر مالأوا المحتل الفرنسي، ولاذوا بالتقية عند مجيء نابليون إلى مصر، ولم يؤدوا واجبهم الوطني، وأنهم كانوا أداته الطَّيعة في تنفيذ أغراضه.. وزورًا ما قالوا، فالأزهر هو من حمل شعلة المقاومة، وقاد الغضب الجماهيري الذي أرهق جيش نابليون وأغضبه.. حتى كان كل همه حينما قامت عليه ثورة القاهرة، أن يضرب مصدر الثورة وبؤرتها بمدافعة الكافرة.. فانهالت القذائف والنيران على الأزهر وأحيائه المجاورة، ونالت من قداسته وشموخه.. أما هؤلاء المدلسون بزورهم فإنهم يصممون على محو التاريخ وتكذيبه، ولو طالوا مسحه من الوجود لفعلوا، ولكنه مسطر محفوظ ينطق بما كان للأزهر الشريف من بطولة سامقة.. وإنني لأتعجب كيف ساقتهم الجرأة والوقاحة لمثل هذا الكذب الصريح دون خشية من أحد؟ أو فزعة من معترض.. إنهم يعرفون أن الأمة تغط في جهل كبير، وأن هناك عزلة قوية بين المصريين وزعماتهم الدينية.

إن أبطال المقاومة تجمعوا في دوحته المباركة، وملأوه بالأسلحة والذخيرة، وصعد المؤذنون ينادون للجهاد على المآذن، وطاف العلماء في الشوارع يحرضون الناس على مواجهة المحتلين الغاصبين بالقوة حتى بلغ عددهم خمسة عشر ألفا.. وكانت الشوارع تعج بالثور والمتاريس.. أما الفرنسيون فكانوا على أتم استعدادٍ لقمع الثورة، فنصبوا مدافعهم وعزموا على ضربها بكل عنف وقسوة، ولم يستقر الثائرون في الأزهر.. وإنما خرجوا للقاء العدو والتربص به ومحاصرته، فوصلوا إلى مقر القيادة الفرنسية بالأوزبكية، وتسلقوا بعض المآذن وأرسلوا نيرانهم على الفرنسيين، ودارت مواجهة عنيفة، ولكن الفرنسيين بادلوهم بالنيران واستطاعوا القضاء عليهم، فسقط عدد كبير من الشهداء رجالاً ونساء، واتجه تفكير نابليون إلى ضرب الجامع معقل الثورة وبؤرتها المتوهجة، فحول كتائبه وواصل ضربه المدوي للأزهر وأحيائه من الظهر إلى الليل.. حتى اتسع ميدان التحطيم ليشمل مناطق الغورية والفحامين وباب زويلة والكحكيين.! كان يريد أن يهدم كل ما يتصل بالأزهر، حتى ينتقم ويشفي صدره من هذا الصرح الذي عبأ له كل هؤلاء المقاومين.

وينقل الرافعي ما دونه مؤرخ الحملة الفرنسية (ريبو) عن هذه المعركة بقوله: "أوشك الأزهر أن يتداعى من شدة الضرب، فتدفن تحت أنقاضه كثير من الجماهير المحتشدة به، وأصبح الحي المجاور من الأزهر صورة من الخراب والتدمير، فلم تجد إلا بيوتًا مدمرة ودورًا محترقة، ومات تحت الأنقاض آلاف من السكان الآمنين، وكان يُسمع لهم أنين موجع وصيحات مرعبة "وبعد عملية التدمير الشامل التي نفذها المجرم نابليون اتجه لدخول الأزهر بجنوده الآثمين، وعواطفهم تمتلي حقدًا بعد أن قتلوا كل من فيه من المقاومين.. دخلوه بخيولهم وربطوها في قبلته ودهموا أروقته وخزانات الكتب،

ومصابيح السقوف وقناديل الإضاءة، ونهبوا ما وجدوه ذا نفع من الأواني والقصاع والودائع والمدخرات، ونثروا الكتب على الأرض وأحرقوها بالنيران، وداسوا المصاحف بنعالهم وتبولوا فيه، وأعدم نابليون عددًا كبيرًا من العلماء والزعماء الذين قبض عليهم بعد تغلبه على الثورة..

وفي عهد (كليبر) كان القمع على أشده أكثر مما كان على عهد نابليون، حتى شاءت الأقدار أن تكون نهايته على يد البطل الأزهري (سليمان الحلبي)، وساعده على تنفيذ مهمته أربعة من طلاب الأزهر، أُعدموا بقطع رؤوسهم وإحراق جثثهم ووضع رؤوسهم على عصي غليظة طافوا بها في الأسواق (واتجهت الريبة إلى كل أزهري، فكان الشيخ لا يأمن على نفسه أن تتخطفه الجنود دون ذنب سوى أنه أزهري.!) لقد كان الجميع على مستوى البطولة، حتى الشيوخ الذين لديهم علة تمنعهم من حق الجهاد، كانوا يجاهدون ويقومون بدورهم أروع قيام.. ومنهم الشيخ الضرير (سليمان الجوسقي) شيخ زاوية العميان، والذي كان يُلقي دروس الوطنية، ويحث الناس على مقاومة المحتلين، ويذكرهم بفدائية السلف الصالح، ويُلهب عزائمهم ويوقظ حماسهم.. إلى أن قُبض عليه بتهمة التحريض على قتل أبناء فرنسا ومعه عدد من الشيوخ الأبطال وهم: (أحمد الشرقاوي –عبد الوهاب الشبراوي – يوسف المصيلحي -اسماعيل الشبراوي) حبسوهم وعروهم من ثيابهم، وصعدوا بهم إلى القلعة ثم سجنوهم إلى الصباح، ورفضوا شفاعة العلماء فيهم.. ثم أنزلوهم وقتلوهم بالبنادق، وألقوهم من السور خلف القلعة ولم تعرف لهم قبور، هكذا يذكر الجبرتي في تاريخه.!

وبينما نتذكر هذا المجد وهذا الفخار.. يأتي شيوعي دنيء فيشيع عنهم هذا الافتراء، ويلطخ هذه الصفحات الناصعة من تاريخ الأزهر وعلمائه، وتاريخ الحركة الوطنية وزعمائها الكبار.. كل هذا لا لشيء، إلا لأن القيادة

الثورية المقاومة في تلك الحقبة كانت قيادة دينية، وكان الأزهر هو مصدر الثورة ومركز إشعاعها، وكان رجاله هم قادتها ومحركوها.. وهو الشيء الذي يُغضب الشيوعيين الكارهين لكلمة الدين.. فلتذهب المقاومة للجحيم وليذهب دم الشهداء رخيصًا لا قيمة له، وليذهب التاريخ للهاوية.. حتى لا تقوم للدين قائمة..

لقد قدم الأزهر في مواجهة الحملة الباغية، علماء شوامخ ضربوا أعظم المثل في التضحية والفداء والجهاد في سبيل الله وطلب الشهادة.. ويظهر لنا كيف كان الأزهر مهد الجهاد، كما كان مهد العلم، ومهد القيادة السياسية كما كان مهد الوعظ؟ ولما سطر التاريخ بلاءه وصلابته في وجه الظلم، كان لابد من تخطيط الحاقدين لتنحيته من قيادة الأمة، و إفساده و إفساد علمائه بكل الحيل والوسائل.!

واستمع لهذه القصة المفتراه، والتي حاولوا من خلالها إثبات أن نابليون شامخ عظيم جاء لينير القاهرة.. بينما وجد في طريقه عقبة تمثلت في هؤلاء الجهال من علماء الأزهر، الذي حرضوا الناس على إطفاء المصابيح التي أمر بها نابليون لتنير القاهرة.. إن كاتبها يروى أن علماء الازهر قابلوا الغزو الفرنسي لمصر بصوت محبوس، وهمة مشلولة، وأنهم ما تحركوا محتجين إلا عندما أنار الفرنسيون القاهرة، لأن إبقاء المصابيح كفر، وإشاعة الظلام بالليل هو ما يعمل له علماء الدين الرمم.. وهكذا يقف الإسلام وكل من ينتمي اليه مع الظلام وضد النور، ويالها من فرية لا يكيدها لديننا أشد الأعداء، لكنها أتت من أهله المتنصلين منه.. وحينما نستدعي شاهد الجبرتي، يخبرنا أن القصة برمتها كانت حيلة من نابليون ليحكم قبضته على القاهرة التي تموج بالثورة، وتكسح له المصابيح هذا الظلام الذي يتخفى وراءه القناصة والفدائيون..

وحينما نقرأ كلام صلاح جاهين وهو يجسد هذه الواقعة بشعره أو بهزله نرى حقدًا رهيبًا يبيته الرجل في نفسه للإسلام ورجاله.. يقول:

زحف الفرنسيس وزحف قبلهم جواسيس.
غايصين لقاعها وعارفين باعها من باريس.
و ايش عمل القاع قصير الباع. فى القمة.
و ايش تعمل العمة فى البرنيطة يا أئمة.
العمة ما اتكلمت، وتن صوتها حبيس.
غير مرة لما البوليس قال: نوروا الفوانيس.
وده كفر طبعا.. ولا يدخل لنا في ذمة.
اطمن الغرب ان في بلدنا ناس رمة.
وانهش يادين فينا و اقضي بمنتهى الهمة.
على اسم مصر

ثم يقول:

و أنا لو «نابليون» لكنت عدمتهم تقتيل
ما دمت أقدر أسيح دمهم في النيل
وأخلع ذقونهم و أبين أنها تضليل
على اسم مصر..

يقول الأستاذ (محمد جلال كشك) في كتابه القيم (ودخلت الخيل الازهر): "كان الأزهر رمز سيادة الأمة ومركز قيادتها، لقد قاد المقاومة على جميع المستويات، من المقاومة السلبية التي قادها الشيوخ الكبار داخل مجالس نابليون وداخل التشكيلات الإدارية التي أقامها لحكم البلاد إلى المقاومة الوطنية التي قادها الشيوخ الصغار بتنظيم حركات سرية.. إن المقاومة العنيفة التي لقيها الفرنسيون على يد الأزهر، هي التي بصرت

المستعمرون من بعدهم لضرورة القضاء عليه، والحد من قوته وثورته، ودوره القيادي الذي يمنع أي استعمار أن يستقر في وادي النيل.! كان الأزهر هو القيادة الشرعية للأمه، والسنوات الثلاث التي قضاها نابليون في مصر، إنما كانت كلها حروب مع الأزهر ومقاومة لا تهدأ أبدًا، وعن طريق محمد علي وأسرته تم تهميش هذه القيادة والقضاء عليها، وإحداث عملية تغريب للقطر المصري كله، خدمة للاستعمار وتسهيلاً لأمره في احتلالها والتهامها."[1]

كما كان للأزهر دوره المشهود والقوي في مواجهة الاحتلال البريطاني، فحينما جاءت حملة فريز عام ١٨٠٧م، وسيطروا على الإسكندرية، وأرادوا دخول رشيد والاستيلاء عليها بألفي مقاتل من جملة ٦٠٠٠ مقاتل، فاستدرجهم الأهالي إلى وسط المدينة وانقضوا عليهم وقتلوا قائدهم، و١٧٠ جنديًا ممن كانوا معه، وأسروا ١٢٠ وأرسلوهم إلى القاهرة مكبلين، وفي هذا التوقيت كان محمد علي مشغولاً بمطاردة المماليك في الصعيد، فكان لابد للأزهر وقتها أن يقوم بدوره المنوط به، في الحفاظ على الأمة وتوجيه الشعب، فعقد اجتماع برئاسة شيخ الأزهر عبدالله الشرقاوي ونقيب الأشراف العالم الأزهري السيد عمر مكرم لمواجهة العداون، وكتب أهالي دمنهور للسيد عمر مكرم وطلبوا منه المعونة بالسلاح حتى يدافعوا عن أنفسهم بعد هروب حاكمهم أمين أغا.. ولم ينتظر عمر مكرم حتى عودة محمد علي الذي أبطأ في القدوم، فقاد المقاومة الشعبية وأعاد تنظيمها وطلب من أهالي القاهرة حمل السلاح والتأهب لقتال الإنجليز والدفاع عن مصر، وأمر بوقف الدراسة في الأزهر حتى يتفرغ المدرسون والطلبة للجهاد وحماية الوطن.

---

[1] - ودخلت الخيل الأزهر. محمد جلال كشك

كما عقدوا اجتماعًا آخر وحدوا فيه الصفوف، وأمروا بحفر خندق وبناء سور شمال القاهرة ليعيق وصول المحتل إلى قلبها، وذهبت جموع من العلماء إلى بولاق ومعهم جموع من الأهالي للمساعدة في حفر الخندق وإصلاح الأسوار و إقامة المتاريس، وكان عمر مكرم يبقى معهم طول النهار يحثهم ويبث فيهم روح الجهاد والنضال، وقام علماء الأزهر بإمداد حاكم رشيد بالرجال والسلاح، وكتبوا رسائل لعربان البحيرة يدعونهم فيها للجهاد والانضمام لإخوانهم في رشيد.. وأراد المحتل وقتها أن يوجه ضربة انتقامية من أهالي رشيد بالمدفعية الثقيلة، واحتلوا قرية الحماد حتى يحاصروا المدينة، وشرعوا في إطلاق مدافعهم وضرب رشيد، واستغاثت المدينة بالسيد عمر مكرم، فعقد اجتماع بالأزهر طالب فيه العلماء بالمسارعة في نجدة رشيد، وألقى خطابًا كان له تأثيرٌ قوي على الناس، حثهم فيه لنصرة إخوانهم في رشيد، ولما عاد محمد علي طلب من السيد عمر مكرم أن يجمع له المال لتغطية نفقات الجنود الذاهبين لقتال الإنجليز، واستمرت الحرب قرابة أسبوعين انتهت بهزيمة الإنجليز وقتل وأسر عدد كبير منهم.

وكان للأزهريين جهود ملموسة في موقعة التل الكبير ونصرة عرابي، حيث ذهب علماءه مجموعات تلو أخرى إلى ميادين القتال برئاسة الشيخ حسن العدوي، وكان طلبة الأزهر يجوبون الشوارع يوزعون المنشورات التي تحث على الجهاد في سبيل الله، وامتلأت المساجد بهم يتضرعون إلى الله تعالى لنصرة عرابي وجيشه، وكان لخطبهم الدينية أثرها الكبير في تعبئة الجماهير، والتطوع للقتال والتبرع بالمال، وتقديم كل ما يستطيعون للمجهود الحربي.

كما كان لهم موقفهم العنيف من الخديوي (توفيق)، الذي اتهموه بالخيانة الوطنية وممالأة الإنجليز.. وبعد هزيمة عرابي تمكن منهم الخديوي،

وعاقبهم وقدمهم للمحاكمة ونفى أكثرهم خارج البلاد وعلى رأسهم الإمام محمد عبده، حتى أنه أصدر أمره بإعفاء شيخ الأزهر الأنباني من منصبه.

وبعد عشر سنوات قامت مظاهرة عاصفة في ٢٧ يناير ١٩٠٩م تقدمها طلاب الأزهر وتوجهت إلى قصر عابدين واصطدمت بالبوليس وتبودلت القذائف، وكانت أحداثًا رهيبة.

العدوي في قفص الاتهام؟

لا تستطيع أمام ما تقرأه من سيرة هذا العالم إلا أن تتعجب وتندهش وتتساءل: أين ولت هذه البطولة وهذه القوة وهذه الصلابة وهذا التحدي في وجه الباطل الذي اتسم به علماء الأزهر قديمًا؟!

كيف تم السيطرة عليهم وإخماد حماسهم؟! كيف نجح المتربصون بهذا الحصن العظيم أن يدجنوا علماءه ويُخرجوا من صحنه الشريف الذي كان عرينا للأسود الضواري.. نفوسًا جبانة ضعيفة مستكينة مخذولة مهزومة منبطحة أمام صوت الباطل وسطوته وجلده؟!

ولعل الشيخ (العدوي) الذي نصحب سيرته الآن، واحد من هؤلاء الأشاوس الذين يثيرون في عقولنا مثل هذه الدهشة التي نتحدث عنها، حينما نرى هذا البون الشاسع بينه وبين من نرى من الأزهريين المخنثين المائعين أمام الطغاة.!

يُطل علينا الزعيم (عرابي) في مذكراته السياسية حينما تحدث عن المؤتمر الوطني الذي مثله مع زملائه الأزهريين، وخرجوا فيه بهذا القرار التاريخي الشجاع، والذي يقضي بعزل الخديوي توفيق وتكليف عرابي بالدفاع عن الوطن.. بعد أن قُرئت على المجتمعين فتوى أزهرية ثورية تقضي بمروقه وخيانته مما كان لها أكبر الأثر في ثورة الشارع المصري وسخطه على الخديوي الخائن.!

ويشاء الله تعالى أن تُهزم الثورة العرابية، وينتصر عليها الخائن توفيق بمعاونة الإنجليز، وتأتي ساعة الانتقام والتشفي من كل من ساند هذه الثورة، وساعدها من الضباط والعلماء والشيوخ والمناضلين المصريين.. وكان منهم الشيخ العدوي الذي قُدم إلى المحاكمة فلم يجزع أو يجبن وكان

راسخًا رسوخ الجبال الشم العوالي، وسأله رئيس المحكمة: هل أفتيت بعزل الجناب الخديوي؟ فأجابه بقوله: لم أصدر هذه الفتوى، ولكنكم لو تقدمتم إليّ بعريضة تتضمن هذه الفتوى وأردتم مني توقيعها لكم، فلن أتردد في ذلك.. وما في وسعكم و أنتم مسلمون أن تُنكروا أن الخديوي يستحق العزل لمروقه عن الوطن والدين؟!

وهنا يقف المرء حائرًا أمام هذا الكلام الجريء الشجاع أمام محكمة ظالمة، وحاكم يريد أن يبطش به، ويتحين كل فرصة حتى يعاقبه أشد العقاب.. ويخلد في خياله أن هذا المتهم لو قبّل القدم و أبدى الندم، فإنه لن يغفر له أو يسامحه.. لكنه لم يكن يتوقع أبدًا مثل هذه الجرأة وهذه الشجاعة في الانتصار للحق.. ولكن هذا الشموخ الذي واجه به العدويّ محكمة الخديوي، كان مفخرة للأزهر والأزهريين.. وصورة رائعة لائقة بعلماء الدين الأحرار البواسل.! الذين تيتم منهم زماننا، وحرمنا من زئيرهم المزلزل لدنيا الطغيان.!

ومثل هذا الرجل.. لابد أن يكون شامخًا، ولا يليق به إلا أن يكون كذلك.. فحينما تقرأ تاريخه وموا قفه، تحكم بذلك، وتدرك أن هذا الرجل يؤمن إيمانًا قويًا أن العزة والإباء، سمات لازمة لا تنفك عن عالم الدين، الذي يُمثل الإسلام ويرمز لرفعته.

تأمل هذا العالم الجسور الذي ثار على الحاكم الخائن، وشارك الثورة العرابية ضد المارق توفيق.. انظر إليه حينما قدم السلطان العثماني (عبد العزيز) لزيارة مصر في عهد اسماعيل، حيث طُلب منه لكونه من شيوخ الأزهر الكبار.. أن يلتزم بتقليد رسمي لحظة السلام على السلطان، والتي تقضي أن ينحني على الأرض ثلاث مرات، يأخذ فيها السلام إلى رأسه ثم إلى فمه ثم إلى صدره، ويخرج موجهًا صدره إلى الخليفة وظهره إلى الباب.

وحينما أُمليت عليه هذه الصورة المهينة في تحية السلطان، والتي لا تليق بحملة العلم والشريعة رماها من فكره، وتصورها تقاليد سفيهة بالية، لا تمت لروح الإسلام، التي توحي بالأخوة والحرية والمساواة، بل تصورها من وحي الوثنية التي طمس الإسلام كل مظاهرها وجعل العبودية لله وحده.. رمى كل هذا وراء ظهره ودخل على السلطان شامخًا مرفوع الرأس وهو يقول له: السلام عليك يا أمير المؤمنين ثم قدم إليه نصيحة ودعا له بتقوى الله وخوَّفه من عذابه.. وهنا وأمام هذه الجرأة العظيمة ثارت ثائرة الخديوي إسماعيل الذي شهد هذا المشهد وهو يتفجر غيظًا، لأن هذا العالم الجريء لم يلتزم بتحية السلطان المقررة، ولم يقم بما فيها من تعظيم و انحناء وتبجيل، ولكن غضبه لم يجد سبيله لينفس عن سُعارِه حينما أبدى السلطان إعجابه بتحية العدوي، حيث خلع عليه حُلة ثمينة وقال لمن حوله: ليس لديكم عالم سواه!

ويبدو أن هذه الروح الثائرة التي تفوح بالعزة والشجاعة والكبرياء، كانت هي نمط التربية السائد لدى الأزهر وعلماءه في تلك الحقبة.. هذه الروح التي كانت تضع الحكام في مو اقف حرجة وتلزمهم الحجة أمام الله وأمام الأمة.. فقد وقف الخديوي إسماعيل يومًا وقد أمر علماء الأزهر أن يقرؤوا البخاري حتى يكون بركة تجلب النصر في حربه في الحبشة.. ولكن الأنباء توالت بهزائمه المتتابعة، فصاح في العلماء قائلاً: إما أنكم لستم بعلماء، أو أنكم لم تقرؤوا البخاري.؟! وهنا وفي هذا الجو الملبد بالغيوم، وأمام غضب الخديوي المتصاعد، يخرج عالم من بين الصفوف فيوجه إليه كلمات كالرصاص ويقول: ليس الأمر هذا ولا ذاك، ولكنه على ما رواه البخاري من حديث المعصوم ﷺ: (لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله

عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لكم)[1] وهنا تتكسر حدة الخديوي أمام هذه الكلمات الحرة الجريئة، فيلتفت إلى هذا العالم ويقول له: وماذا فعلنا حتى ينزل بنا البلاء؟ فقال له: أليست المحاكم المختلطة قد أحلت قانونًا يبيح الربا؟ أليس شرب الخمر مباحا؟ أليس الزنا برخصة؟ ويصمت الخديوي أمام هذا الصوت المدوي الذي كشف له عوار تقصيره وفساده، وغفلته عن تنفيذ حكم الله وتطبيق شرعه، يصمت أمام هذا الرعد الذي كشف له مواطن الداء التي نزل بسببها البلاء، وحجب النصر على الأعداء.!

وكذلك كان العالم الحر الجسور (حسن الطويل) الذي كان لديه قسط وافر من الاعتزاز بالنفس والكرامة الذاتية، فحين دخل عليه (رياض باشا) وهو يدرس لطلابه بدار العلوم، لم يغير من جلسته أو ينخلع وقاره لهيبته.. ولما هم الزائر بالانصراف، قال له الشيخ الطويل: يا باشا لماذا لا أكون وزيرًا معكم؟ فدهش الزائر وقال له: أي وزارة تُريد، فقال له: وزارة المالية، لأستبيح من أموالها ما تستبيحوهن.. وكانت كلمات مستفزة أشعلت نفس رياض باشا غضبًا كبيرًا، لكن لم يستطع فعل أي شيء له.. ولم يقدر على عقابه للمنعة التي كان فيها علماء ذلك الزمان.!

وحين دخل اللورد كرومر على شيخ الأزهر الأنباني لم يقم له، وسلم عليه وهو جالس، فقال له كرومر: أتفعل هذا مع الخديوي؟ فقال له الأنباني: الخديوي ولي الأمر وهو منا.. ولست مثله لدينا في شيء.. وكان موقفًا أوجع كرومر، ولم يقصد به الأنباني أن يتزلف للخديوي، وكيف يتزلفه وهو الذي قد وقف من قبل موقفا مشهودا لا ينساه التاريخ و أفتى بعزله، وحكم عليه بالمروق من الدين، تمامًا كما فعل الشيخ العدوي.!

---

[1] - رواه الترمذي

الإمام الثائر

إذا كان يحلوا لهم أن يُلقبوا الإمام (محمد عبده) بأنه الأستاذ الإمام، فإني أُلقبه بالإمام الثائر.! هذه الثورة التي صاحبته في بواكير حياته من مواجهة المحتلين، والحكام العملاء الخائنين.. هذه الثورة التي استمد بذورها الأولى من آبائه وأجداده الذين كانوا يقفون لجور الولاة وجشعهم في جباية المظالم.. ثم كان لقاءه بالثائر الأكبر الذي أرسل في نفسه أشعة الحماسة، وأشعل فيها لهيب الثورة.. الثورة على الجهل والظلم والخيانة والاستعمار.. فبعد محاولات من التمرد على رغبة الأسرة، استطاع الفتى محمد عبده أن ينتظم في الدراسة بالأزهر الشريف، وكان مقدرًا له أن يكون عالمًا كأي عالم يتخرج منه ليحمل الفكر التقليدي الذي عليه كافة الأزهريين في الغسل والطهارة والمواريث.. لو لا أن حدثت نقطة تحول في حياته جعلت منه الثائر الأكبر وقائد الأمة، وحامل همومها وموجه فكرها ووعيها، حينما قابل موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام، وعظيم المسلمين (جمال الدين الأفغاني).. بدأ (محمد عبده) يتلقى العلم على يد جمال الدين علومًا كانت جديدة في محيط الأزهريين.. ولكن أعظم هذه الدروس وأشدها أثرًا هو ذلك السحر الروحي الذي تلقاه عنه، كانت لجمال الدين قدرات شخصية وعلمية، على غير ما عهد من شيوخ الدين.. كان داهية في علمه وعقله ووعيه وعمقه وتفكيره، وكما حكى عنه تلاميذه: "كان يشرح العبارة ليستخرج منها قوة حية تسري إلى النفس فتحركها إلى العمل، وكأنما الكلمات المشروحة على لسان تلك المفاتيح الصغيرة، التي تدار فتنبعث منها قوى من الكهرباء لا يستقر عليها قرار"

هذا هو المعلم الذي تعلم على يديه (محمد عبده) ونهل منه وتشبع بأفكاره.. ومن جهة أخرى لمح جمال الدين سِمات النجابة والعبقرية في جبين الفتى الناشيء، فاهتم به ورعاه.. لقد أخذ الشيخ وتلميذه على عاتقهما نهضة العالم الإسلامي وتعاهدا أن يقفا في وجه المحتلين، ويقاوما الحكام الخائنين المتخاذلين.

لقد كان من أكثر و أبرز السمات التي استقاها التلميذ محمد عبده من شيخه جمال الدين، هي استخفافه بالسلاطين والملوك، مهما علا سلطنهم وارتفع ملكهم.. لقد كان جمال يراهم في عينه صغارًا، ويومًا ما كان يعبث بمسبحته في حضرة السلطان (عبد الحميد الثاني)، فنبهه رئيس الديوان إلى قواعد التشريفة، فأجابه ساخرًا: مَه يا هذا، إن السلطان يعبث بحياة ثلاثين مليونًا من بني آدم، أفلا يلعب جمال الدين بثلاثين حبة من الكهرمان.!

أما التلميذ، فإن الخديوي (عباس حلمي الثاني) كان يشكو من مسلكه معه ويقول: يدخل علي وكأنه فرعون! فلما بلغه ذلك قال: و أينا فرعون؟!

يقول الأستاذ (طاهر الطناحي): ساءت علاقة الخديوي بمحمد عبده وما زالت تسوء حتى بلغت الغاية، ولكن الشيخ كان من الشجاعة الوطنية على حد كبير فلم يتأثر بإعراض الخديوي عنه، ولم يخش استبداده ومضايقته، بل كان يقف من العدالة وحق الوطن، ما اشتهر عنه في عدة مو اقف، حتى أصبح العدو الأكبر للخديوي عباس حلمي، وكان محمد عبده يستعين عليه بما يملك من شخصية عظيمة مهيبة في الأمة، وكان يجهر بر أيه في كل أمر يراه من مصلحة البلاد..

دعا أحد المنافقين يومًا للخديوي عباس وعائلته عام ١٩٠٢م أن يقيموا ذكرى جده محمد علي بمناسبة مرور ١٠٠ عام على حكمه، في مايو سنة ١٩٠٥م فرأى محمد عبده أن الاحتفال ما هو في حقيقته إلا تقديس

للاستبداد، وتسجيل على الأمة شرفًا مزعومًا، وحكمًا مغصوبًا، كله أنانية وظلم واستبداد، فكتب مقاله الناري في المنار تحت عنوان: (آثار محمد علي في مصر) وكان مما ذكر قوله: ما الذي صنعه محمد علي؟ لم يستطع أن يُحيي، ولكن استطاع أن يُميت، كان معظم قوة الجيش معه، وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة، فأخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الأحزاب، على إعدام كل رأس من خصومه، ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولاً فيمحقه.. وهكذا حتى إذا سُحقت الأحزاب القوية، وجّه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة، فلم يَدَع فيها رأسا يستقر فيه ضمير "أنا".. اتخذ من المحافظة على الأمن سبيلاً لجمع السلاح من الأهلين، وتكرر ذلك منه مرارًا حتى فسد بأس الأهلين، وزالت ملكة الشجاعة فيهم، وأجهز على ما بقي في البلاد من حياة في أنفس بعض أفرادها، فلم يبق في البلاد رأسا يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه، أو نفاه مع بقية بلده إلى السودان فهلك فيه.

أخذ يرفع الأسافل ويُعليهم في البلاد والقرى، كأنه يَحِن لشَبَه فيه ورثه عن أصله الكريم! حتى انحط الكرام وساد اللئام، ولم يبق في البلاد إلا آلات له يستعملها في جباية الأموال، وجمع العساكر بأية طريقة، فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأْيٍ وعزيمة واستقلال نفس، ليُصَيّر البلاد المصرية جميعها إقطاعًا واحدًا له ولأولاده بعد إقطاعات كانت لأمراء عدة.. ماذا صنع بعد ذلك؟ اشرأبت نفسه لأن يكون ملكًا غير تابع للسلطان العثماني، فجعل من العُدة لذلك أن يستعين بالأوربيين، فأوسع لهم في المجاملة، وزاد لهم في الامتياز، حتى صار كل صعلوك منهم لا يملك قوت يومه، ملكًا من الملوك في بلادنا، يفعل ما يشاء ولا يُسأل عما يفعل، وصغرت نفوس الأهالي بين أيدي الأجانب بقوة الحاكم، وتمتع الأجنبي بحقوق الوطني التي حُرم منها، وانقلب الوطني غريبًا في داره غير مطمئن في قراره..

فاجتمع على سكان البلاد المصرية ذُلان ...ذُل ضربته الحكومة الاستبدادية المطلقة وذُل سامهم الأجنبي إياه ليصل إلى ما يريده منهم ...غير واقف عند حد أو مردود إلى شريعة."

فأي جرأة كان عليها الشيخ، وهو يجأر بالحق ليظهر حقيقة مؤسس الدولة، وَجَدُ الحاكم الذي تُغضبه هذه الصراحة وهذه الحقيقة؟!

لقد جاء جمال الدين إلى مصر ليقود انقلابًا ضد الخديوي اسماعيل، ويزيحه عن العرش بكل عوامل الضغط السياسي، وإذا كان هذا فعل الحكيم الكبير، فإن الفتى الشاب كان يرى ضرورة التغيير، ولو كلفه ذلك أن يقوم بقتل اسماعيل نفسه، إن تعذر محوه بالإعفاء أو من السلطان، وهي رغبة متهورة يشفع لها سِنه وشبابه وحماسته، وبعد أن تم لهما مرادهما في خلع اسماعيل، جاء توفيق فخدع الثوار وتآمر لطرد جمال الدين من مصر ونفيه إلى باريس.. وجاءت الثورة العُرابية التي ناصرها (محمد عبده) وأيد أهدافها ورجالها ولكنه لم يكن مجرد شريك أو مجرد ثائر من الثوار أو مؤيد للحركة التي قامت وإنما كان محمد عبده أكبر من ذلك بكثير، فيمكننا أن نقول بأنه هو مفجر هذه الثورة، بكتاباته ومقالاته التي أنارت فِكر الأمة، وهدها لمطالبها من الحرية والاصلاح، لقد كان المجتمع كله متأثرا بآراء الأستاذ الإمام، مما مهد الطريق لهذه الثورة الاصلاحية.. يقول العقاد: (كان محمد عبده ثائرا ..لكنه لم يكن عرابيًا) ومعنى هذا أنه كان يختلف معهم في كثير من الآراء والتوجهات، لقد أيدها في رفضها للحاكم التابع للإنجليز، ويؤيدها في طلبها لرفع المظالم وإصلاح الحكم وإسناد المناصب للوطنين، وحذرهم من أمور قد تُعرض البلاد لخطر الاحتلال، فكان ما كان مما رآه، لبعد نظره وحسن حكمته وفشلت الثورة العرابية، وحوكم رجالها، ونفي محمد عبده ٣ سنوات إلى بيروت.

ثم لحق بأستاذه في فرنسا ليستأنفا معًا رحلة نضال جديدة تمثلت في إنشاء مجلة (العروة الوثقى) الذي قامت تحارب الاستعمار وتفضحه في كل مكان، وتعري الحكام الخائنين الذين تآمروا على أوطانهم وأمتهم.. وتوحيد صفوف الأمة العربية مسيحيين ومسلمين، ليقف الجميع في صف واحد أمام عدوهم.! لقد كان لمحمد عبده مقالاته ودوره السياسي الكبير في تنفيذ أهداف العروة الوثقى، وكان له هذا الموقف المشهود حينما أرسله جمال الدين لإنجلترا لفضح المستعمر الذي أوهم العالم والمصريين، أن المهدي في السودان خطر على مصر والمصريين، لأنه يريد غزوها فقال محمد عبده :الخطر الحقيقي هم الإنجليز، ولو زالوا لما فكر المهدي في شيء، ولما سئل عن الخديوي توفيق، كان رأيه الصادح الجريء: (إن توفيق باشا أساء لنا أبلغ الإساءة، لأنه مهد لدخولكم بلادنا، ورجل مثله انضم إلى أعدائنا في قتالنا لا نشعر إزاءه بأقل احترام، لكنه إذا ندم على ما فرط منه وعمل على الخلاص منكم، غفرنا له سيئاته، إننا لا نُريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم إنجليزية) وهذه الجرأة المتناهية في الحديث عن حاكم، لا يقوى عليها إلا رجل جسور ومجاهد صُلب لا يخشى أي عاقبه في سبيل قضيته، وكان الأولى به أن يخفف من حدة حديثه، حتى تلين له السلطة، فلا تُضاعف مدة النفي الذي أصدرته، أو لعلها تتغاضى عن استكماله فيعود لوطنه وأهله وأسرته و أبنائه، ولكن الحق عنده أعظم من كل شيء.. ولقد ظلت العروة الوثقى منارة تُضي الطريق لأبناء الأمه، وتدلهم على دروب الحرية، وتوقظ فيهم بواعث النضال، وما كان للاستعمار وأذنابه أن يتركوها تؤرقهم وتفسد عليهم مكاسبهم وأطماعهم، حيث أغلقوها بعد ٨ شهور و١٨ عددًا، وتفرق البطلين، فذهب الأفغاني إلى روسيا ورجع محمد علي إلى مصر، ليوجه خطابه للأمم بدلاً من الملوك، ويغير خطة أستاذه في الإصلاح..

ولعل هناك قطاعًا كبيرًا ممن تسوقهم الشبهات، ينكر عظمة وبلاء هذا الإمام الكبير، هو وأستاذه الذي ملأ طباق الأرض جهادًا وكفاحًا، من أجل إحياء مجد أمته وحريتها.. ولعل هذا ظلم كبير و افتئات عظيم، تناوله كثير من البصراء وردوا عليه، ولكن لابد من التنويه بشبهة أحدهم حينما قال: إذا تحدثتم عن محمد عبده ليكن الحديث بعد النفي لا قبله، حين تبدل حاله وتغير مآله، وهنا نقول: هل يعني إذا غير الرجل وجهته لسبيل آخر من سبل النضال، أن نمحي هذا الجزء الكبير والسنين الطويلة التي قضاها مناضلا مكافحًا؟!

إن الشيخ عاد لمصر بعفو من الخديوي توفيق الذي اشترط عليه عدم العمل بالسياسة فو افق؟ ولكن هذه المو افقة لم تكن ضعفًا أو تسليمًا، و إنما لأن الشيخ رأى باجتهاده، ضرورة العمل بمنهج آخر وأسلوب مغاير لأسلوب أستاذه الأفغاني، ومن هنا كان لابد أن نرصد هذه الفترة الثورية التي كان عليها الشيخ في مطالع حياته، والتي لا يستطيع أي تحول في الدنيا أن ينفيها أو يلغيها أو يقلل من قيمتها وقدرها.. اللهم إلا شيئًا واحدًا فقط هو الذي كان بقدرته أن يقضي على هذه الفترة المشرفة من الكفاح الوطني، وهي أن يقدم الإمام نفسه اعتذارا عنها ورفضًا لها، ويأسف على طول صدامه للحاكم والمحتل، ولكن ذلك لم يحدث وما كان له أن يحدث.! ولعل سؤالاً يطرح نفسه الآن وهو: هل وفى الشيخ بما عاهد عليه توفيق بالبعد عن السياسة ربما حدث ذلك.. لكن العهد تغير وجاء التنافر بين العالم الحر الكبير مع الخديوي الجديد عباس حلمي الثاني تُنبيء بغير هذا.!

وبعد هذه المواقف الكثيرة والرحلة النضالية الطويلة.. هل مازال المتنكرون للإمام، يصرون على ظُلمه وإنكار كفاحه العريض في سبيل حرية الأمة..

هل مازالوا ينكرون عليه أن يكون مثالا للعالم الثوري الصُلب الذي يقول الحق غير مرتجف أو هياب؟! بل هل مازالوا ينكرون علينا أن نصفه بالإمام الثائر؟!

المراغي عدو الاستعمار

شعور رائع يغمر كياننا حينما نستعيد ذكرى هؤلاء العلماء الأقوياء الأماجد، الذين كان الواحد منهم طودًا شامخًا وجبلاً أشمًا أمام رغبات السلاطين والحكام.. صورة عظيمة رائعة تُخالف صورة هؤلاء الأنطاع الذين باعوا دينهم بدنياهم، وأهانوا علمهم أمام متع الدنيا الزائلة.. وجعلوه مطية للأمراء والحاكمين يحلون لهم ويحرمون وفق ما تريده أهواؤهم وتطمح إليه مآربهم.. وفي كل زمان تزخر الساحة الاسلامية بهؤلاء الخونة، الذين خانوا أمانتهم ورسالتهم وعلمهم ودينهم وأمتهم فعاشوا في ظل السلاطين يخشونهم كخشية الله أو أشد خشية، ويسبحون بحمدهم ويقدمون مصالحهم على مصالح البلاد والعباد.

وفي وسط هذه الغيوم، يخرج من العلماء من يعلنون الحق، ويظهرون لواءه، غير خائفين أو وجلين، يقفون في وجه الباطل بصمود يتحدى الجبال.. يثورون على الطمع والجور فيركلون بجرأة كل محاولة طاغية تسرق أحلام الشعوب.

لقد كان الشيخ (محمد مصطفى المراغي) واحدًا من هؤلاء العظماء الذين وقفوا أمام الأخطاء بكل شجاعة، وواجهوا في نصرة الحق متاعب كثيرة، خالفوا فيها أصحاب النفوذ والسلطان، وردوهم عن غايتهم التي تخالف دينهم وضميرهم ونفوسهم الحرة الأبية.

يقول الأستاذ (فكري أباظة) في كلماته التي يصف بها الشيخ المراغي: "كان الإمام المراغي شخصية فذة ممتازة، قوية صمدت أمام كل سلطة في البلد، حين شاء الإباء الشخصي أن يصير، وقاومت حين شاءت الكرامة الشخصية أن تقاوم "

استطاع المراغي أن يحقق الصورة الكاملة لعزة الأزهر، وهيبة العالم الشريف النزيه، الذي يتعالى عن الأطماع والدنيا المُذلة المُهينة، بل استطاع أن يُعيد للأذهان صورة العلماء الأحرار الذين واجهوا الكبر والصلف والغرور، كالنووي وابن تيمية والعز بن عبد السلام، واستطاع بما أُثر عنه من مواقف، أن يعزز من مكانة الأزهر ونفوذه على مسرح الأحداث.. هذه المواقف التي دفعت الحاقدين من أنصار التغريب، ومن عاونهم من الخونة وأصحاب المصالح، أن يتآمروا عليه، فيفرغونه من داخله حتى لا يرميهم الزمان بمثل هذا النموذج الذي يؤرقهم، ويقف حائلاً بينهم وبين أطماعهم.

وفي هذه السطور.. نحاول أن نسجل بعض مواقف الشيخ الجليل حتى تكون سلوة وقدوة لطلاب العلم ليروا كيف كان العلماء الربانيين هم حملة الحق، والدروع المنيعة التي تقف أمام الباطل، وتواجه الظلم بكل شجاعة وجرأة وفدائية.

وسبحان الله.. في الوقت الذي نَجد فيه اليوم من علماء الأزهر من يخذلون الحق ويحاربون الحقيقة، ويسيرون في قوافل الحكم والسلاطين أبواقًا تزود عنهم وتحمي ظهورهم، تأتي مواقف المراغي لتصحح هذه الصورة القميئة، التي يتبرأ منها الأزهر ويتبرأ منها العلم.. فمن أشهر مواقفه السياسية خطبته أثناء الحرب العالمية الثانية في مسجد الرفاعي، التي أعلن فيها موقف مصر وأنه لا مصلحة لها من الاشتراك في الحرب، إذ لا ناقة فيها ولا جمل.. حيث يذكر الأستاذ أبو الوفا المراغي في مذكراته، أن هذه الخطبة أحدثت ضجة هائلة، وقامت لها الحكومة المصرية وقعدت، واهتزت لها بريطانيا، هزًا عنيفًا، وطلبت إلى الحكومة المصرية بيانًا عن هذه الفكرة، واتصل به رئيس الوزراء وخاطبه في لهجة تفوح منها رائحة التهديد.. فثارت ثائرة المراغي وقال له: أمثلك يهدد شيخ الأزهر؟ وشيخ الأزهر أقوى بمركزه

ونفوذه بين المسلمين من رئيس الحكومة، ولو شئت لرقيت منبر مسجد الحسين، و أثرت عليك الرأي العام، ولو فعلت لوجدت نفسك على الفور بين عامة الشعب..

وفي سنة ١٩١٤م، كان الأتراك يحاربون الإنجليز وكان الإنجليز في خوف شديد من اشتعال الشعور الديني في البلاد.. ولجأوا إلى وسائلهم المعروفة، وهي إغراء الزعماء الدينيين في العالم الإسلامي بإصدار فتاوى في تفسير معنى الحديث: الخلافة في قريش أو الأئمة من قريش، لأنهم يرون أن من شأن هذه الفتوى أن تؤيد الرأي بأن الخلافة التركية لا ينطبق عليها مثل هذا الحديث.. فجاء دور المراغي وأصدر فتواه التي أقر فيها، أنه ليس من شروط الخلافة أن يكون الخليفة قرشيًا، ولكن الضروري أن يكون مسلمًا ذا عصبية قوية، تستطيع أن تزود عن بلاد المسلمين، مهما كانت جنسيته، فمثل تركيا هي أقوى دُول الإسلام وينطبق عليها هذا الحديث.. ولم يستطع الإنجليز أن ينالوا منه مأربهم أو يخضعوه لغايتهم.

لقد كان المراغي صديقًا للرجل الحديدي رئيس وزراء مصر (محمد محمود) باشا، كما أنهما ينتميا لبيئة واحدة وهي بيئة الصعيد، ورغم هذه الصداقة وهذ الرباط، لم يمتنع شيخ الأزهر أن يشهد فيه شهادة الحق حينما سئل من بعضهم: هل من الخير أن يؤلف محمد محمود باشا الوزارة؟ فقال: إن ذلك ليس من الخير وليس محمد محمود وحزبه موضع تقدير من الشعب، وأعتقد أن الوفد سينال الأغلبية لو أجريت انتخابات.. فلما قيل نعرف أنك من أعز الأصدقاء لديه فأجاب في حكمة وثبات: إن شيخ الإسلام لا يكذب.!

وحدث أن الخديوي ذهب مرة لتأدية الصلاة في أحد المساجد، فوجد إمام المسجد كفيفًا فقال للمراغي وكان يومها مفتشا للمساجد: كيف يكون إمام المسجد الذي أصلي فيه أعمى؟! فأجاب المراغي: إن الإسلام لا يشترط أن يكون الإمام أعمى أو بصيرًا وهو القول الذي جعل الخديوي يخرج غاضبًا.. و لما و افق الإنجليز على تعيين المراغي قاضيًا لقضاة السودان، ذهب حسين رشدي باشا يعرض اسمه على الخديوي، فقال له: أنا لا أحب هذا الرجل، وقص قصة الفقيه الأعمى.. فأجابه رشدي باشا بقوله: هذا الرجل يشترط لقبوله للمنصب أن يكون تعيينه فيه بمرسوم مصري.. إنه يريد أن يحافظ على حقوق البلاد، وهنا قال الخديوي : ما دام الأمر كذلك فأنا أوقع المرسوم.!

ومن المواقف المشهودة للمراغي حينما مر الملك جورج الخامس بالسودان، فأعلن أن العلماء والعظماء سيستقبلونه وقوفًا حول الباخرة، على ألا يصعد إلا الحاكم العام.. فما كان من المراغي إلا أن رفض أن يشترك في حفل الاستقبال، إلا إذا كان من حقه أن يصعد الباخرة في عرض البحر كالحاكم العام سواء بسواء، مما اضطر القائمون على تنظيم الاستقبال خرق قواعد الدبلوماسية أمام إصرار الشيخ، فلما صعد إلى الباخرة سلم على الملك قائمًا منتصبًا، فلما سُئل لم لم تَنحَنِ للملك؟ قال: ليس في ديننا سجود لغير الله! يقول الأستاذ الجندي: كان العلماء من قبله، لا يعملون كأنما قد حِيل بينهم وبين العمل قدر نافذ أو غيب مكتوب، وكان جرفهم التيار فيمضون فيه، وكانوا لا يجهرون بكلمة الحق أو كانت كلمة الحق نفسها لا تجد سبيلها إلى ألسنتهم أو نفوسهم، حتى جاء إمامنا فأعاد مجد العلماء الذي كاد أن يندثر.. أعاد مجد العلماء الذين كانوا يقرعون آذان أصحاب السلطان بكلمة الحق، أعاد ذكرى العز بن عبد السلام والدرير والنووي..

قال كلمته التي هزت الدنيا يوم أعلنت الحرب العالمية الثانية: هذه حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل.. واضطربت بريطانيا وارتجف الاستعمار، ووقف الشرق كله ينظر إلى الرجل الأعزل الذي لم يخش إلا الله، والذي أعاد سيرة الأسلاف..

يقول العقاد: " لو كان أحد يستحق لقب الأستاذ الإمام بعد الإمام محمد عبده، لكان هو الشيخ المراغي" لقد قضى المراغي حياته مخلصًا لدينه، زائدًا عن حياضه محاربًا لكل من يناهضه من التيارات والتحديات والأفكار الهدامة.. وكان من ذلك حربه لحملات التبشير التي انتشرت في السودان آنئذ، حيث احتج ووضح موقف الأزهر ضد التبشير، وأرسل لحكومة السودان، وطالب بالتدخل لوقف هذا المد التبشيري (وقد حمل هذا الموقف المناهض من المراغي للنشاط التبشيري في السودان، أن قام رئيس الوزراء بإرسال برقية إلى الحاكم العام في السودان يُبلغه احتجاج مصر وعلمائها على هذا العمل، فرد الحاكم العام سايمس بشرح الموقف، وطمأن مصر وعلماءها والإمام الأكبر على المسلمين في السودان) [1]

ومن المواقف التاريخية المشرفة للإمام المراغى: رفضه الاستجابة لطلب الملك فاروق، ملك مصر، والخاص بإصدار فتوى تحرم زواج الملكة فريدة طليقته من أي شخص آخر بعد طلاقها، فرفض الشيخ المراغي الاستجابة لطلب الملك فاروق، فأرسل الملك فاروق بعض حاشيته لكى يُلحوا عليه لإصدار هذه الفتوى، فرفض الشيخ المراغي، ولما اشتد عليه المرض دخل مستشفى المواساة بالإسكندرية، وهناك زاره الملك فاروق للاطمئنان عليه من ناحية، وللإلحاح عليه مرة أخرى لإصدار الفتوى الخاصة بتحريم زواج الملكة فريدة.

---

(١) الإمام المراغي – د. محمد الشحات الجندي

فصاح الإمام المراغي، برغم ما كان يعانيه من شدة الألم بسبب المرض قائلًا:

- "أما الطلاق فلا أرضاه، وأما التحريم بالزواج فلا أملكه، إن المراغي لا يستطيع أن يحرم ما أحل الله..!"

رائد الثورة وقائد التحرير

كان الإمام (عبد الحميد بن باديس) هو العقبة الكبرى في وجه الاستمعار، والزعيم الوطني الأكبر، الذي يقود ويدعم حركة التحرير الجزائرية، بل كان هو النواة التي أفرزت معاني الوطنية، وأحييت روح الجهاد والنضال في الشعب الجزائري.

ولد ابن باديس في ٤ ديسمبر ١٨٨٩م في قسنطينة، عاصمة الشرق الجزائري، وتعلم مبادئ اللغة العربية وحفظ القرآن، وأرسله والده في عام ١٩٠٨م إلى تونس لتحصيل العلم في جامع الزيتونة العريق، ثم نجح في امتحان شهادة التطويع (العالمية) وكان الأول على دفعته، وعاد بعد ذلك إلى الجزائر للتدريس والاشتغال بالإصلاح، وفي عام ١٩١٣م، سافر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج والاتصال بعلماء الشرق، ثم رجع إلى الجزائر لخدمة دينه ووطنه.

أدرك الرجل أن الطريق لمقاومة هذا المحتل الغاشم، إنما يكون بالتربية والتأهيل والتعليم، وإيجاد جيل جديد يحمل هموم الامة ويتبنى قضاياها، ويعرف كيف يناضل في سبيلها، ويفدي وطنه بروحه، وتمثل المشروع الإصلاحي عنده في تربية النشء باعتباره وسيلة لتحضير مستقبل الجزائر، وتوعية الجزائريين ليقفوا سدًا منيعًا لسياسة الاندماج والاستيطان التي تنتهجها فرنسا.

لقد أحيا ابن باديس الاسلام في الجزائر، ونشر اللغة العربية وعزز الهوية الإسلامية، ونمى الروح الوطنية، وزرع بزور الحرية في نفوس الجزائريين.. وأدرك أن السبيل الأمثل لقيام وطن حر مستقل، هو مقاومة الحركة التغريبية التي ينتهجها المستعمر لمحو هوية الجزائر الإسلامية،

بتعليم الصبية والفتية، ومقاومة الجهل والأمية والعودة للإسلام الأصيل، ووأد البدع والخرافات التي انتشرت على يد الجهال من أتباع الطرق الصوفية، فعمل مجتهدًا على نشر الكتاتيب والمدارس في كل مكان يستطيع الوصول إليه في الجزائر، كما قام كذلك بباع كبير، وجهاد طويل في ميدان الصحافة، وكان على يقين بالدور الفعال الذي تُمارسه الصحافة في توعية الجماهير والتأثير في أصحاب القرار، فأسس مطبعة وأصدر صحيفة المنتقد، وجعل شعارها (الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء) وأصبحت هذه الصحيفة منبرًا لتوجيه وتوعية الجزائريين وقناةً ينتقد منها الاستعمار وسياساته، وصوتًا ينصر عبره قضايا المسلمين الكبرى، كثورة الأمير عبد الكريم الخطابي في الريف المغربي ومساندة الشعب الليبي.

وأمام هذه الاهداف الوطنية، لم يكن الاستعمار الماكر غافلاً عن مقاصد صاحبها ومراميه التحررية، فسارع إلى مصادرة المنتقد وغلقها، ولكن ابن باديس لم يقف مكتوفًا يائسًا، وإنما سارع إلى إصدار مجلة أخرى تحت عنوان الشهاب، والتي قامت بدور عظيم وجليل في التعليم والتوعية، وإحياء روح الإسلام في الجزائر، واستمرت حتى عام ١٩٣٩م، وأغلقت هي الأخرى بضغط من المحتل.

قاوم ابن باديس المخططات الاستعمارية ميدانيًا وفكريًا، ففي عام ١٩٣٠م، ندد بالحفلات الصاخبة التي قام بها المحتل في العاصمة الجزائرية، بمناسبة الذكرى المئوية لاحتلال الجزائر، واعتبر ذلك إهانة للجزائريين.

ثم كانت خطوته الفاعلة حينما أسس جمعية العلماء الجزائريين عام ١٩٣٢م، والتي كانت تهدف إلى جمع علماء الجزائر تحت لواء واحد، وكلمة واحدة، وموقف واحد، حتى يشكلوا صوتًا قويًا يواجهون به المتحل الغشوم وسياساته الخرقاء، ويتحملون معه عبء الكفاح الوطني، وتعليم

الجزائريين وإماطة الجهالة وإحياء الروح الإسلامية، في النفوس، وبالفعل استطاعت هذه الجمعية أن تُنشي العشرات من المدارس والكتاتيب في شتى أنحاء البلاد، وإصدار العديد من الصحف والمجلات المتتابعة التي تهدف إلى توعية الشعب وتثقيفه، لكن فرنسا حاربت جمعية العلماء، ووضعت في مسيرتها الدعوية كثيرًا من العقبات، ففي ١٦ فبراير ١٩٣٣م، نشر الوالي العام للجزائر بيانًا هاجم فيه جمعية العلماء، وأصدر قرارًا بمنع العلماء من التدريس والإرشاد في المساجد دون رخصة من السلطة الفرنسية، وضيقوا على نشاطات الجمعية ونواديها الثقافية والرياضية بقوانين أصدروها، وأغلقوا مدارسها، واعتقلوا كثير من العلماء بحجة عدم امتلاك الرخصة.

ولم يكن ابن باديس، هذا العالم الواعي ورائد التحرير الوطني بمعزل عن قضايا الأمة وشؤون وطنه، كما هو حال الكثير من علماء الدين الذين يرون مجرد الحديث في السياسة منكر وزور، ويعدونه انحرافًا عن الدين، بل كان ابن باديس زعيم الإصلاح الأول، ورائد التحرير الوطني، والمنبع الذي تولدت منه ثورة الجزائريين التي نالوا بها تحريرهم، فهو من ربى الشعب، وأحيا الهوية، وأعد أجيالاً من المناضلين الذين قاوموا المحتلين و أقضّوا مضاجعهم.. كان رحمه الله يجمع بين العلم والاصلاح والسياسة، وهي الصورة الصحيحة لعالم الدين الذي يعرف مهامه وغايته ومسؤوليته تجاه أمته ووطنه وقضاياه، فقد قال يومًا: (لابد من الجمع بين السياسة والعلم، ولا ينهض العلم والدين حق النهوض إلا إذا نهضت السياسة بحق)

ولعمري هذا هو الوعي، وهذا هو العلم، وهذا هو الإسلام، الذي يرفض دعاوى الجبناء ممن ينتسبون للعلم حين يزعمون أن دورهم محصور مقصور في تبليغ العلم فقط، وأن رسالتهم هي الهروب من أي مواجهة، وعدم إقحام أنفسهم فيما يجلب لهم أي ضرر أو هلكة للنفس..

لقد أوشك ابن باديس أن يعلن ثورة عامة على الفرنسيين في أوقات ضعفهم في الحرب العالمية الثانية، لولا أنه مرض في هذا الوقت مرض الوفاة، ورحل عن الدنيا عام (١٩٤٠م)

لقد أدرك ابن باديس مشكلة الأمة المسلمة، وأكبر أدوائها، وهو كما قلنا دومًا وأشرنا وكتبنا: خلو الساحة من القيادة المؤمنة والريادة الربانية العاملة الصالحة فقد كان يقول: "لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم، فإنّما العلماء من الأمّة بمثابة القلب إذا صلح، صلح الجسد كلّه، وإذا فسد.. فسد الجسد كلّه، وصلاح المسلمين إنّما هو بفقههم الإسلام وعملهم به، وإنّما يصل إليهم هذا على يد علمائهم، فإذا كان علماؤهم أهل جمود في العلم وابتداع في العمل، فكذلك المسلمون يكونون، فإذا أردنا إصلاح المسلمين فلنصلح علماءهم، ولن يصلح العلماء إلاّ إذا صلح تعليمهم، فالتعليم هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته، وما يستقبل من علمه لنفسه وغيره، فإذا أردنا أن نصلح العلماء فلنصلح التعليم ونعني بالتعليم؛ التعليم الذي يكون به المسلم عالمًا من علماء الإسلام، يأخذ عنه الناس دينهم ويقتدون به فيه"[١]

وعلى جانب آخر.. أدرك ابن باديس أهمية المسجد في نشأة وتربية من يريد تخريجهم من أجيال واعية مناضلة، وأثره كذلك في تشكيل وتوعية عقول الجزائريين، فعمل على ضرورة إحياء المساجد وربط الناس بها.. وقام بجهد كبير في إرسال الطلبة للتعليم في المعاهد العلمية الدينية الكبرى في الأزهر والزيتونة ودمشق، حتى يكونوا قيادات المستقبل التي تربط الشعب بدينه وهويته التي يريد الاستعمار مسخها والقضاء عليها، وكان حفاوته شديدة بهؤلاء الطلاب والتلاميذ حينما يتخرجون ويحصلون على شهاداتهم،

---

[١] - آثار بن باديس - المفكر الجزائري الدكتور عمار طيبي

لأنه يشعر تجاهم أنهم طوق النجاة والأمل الذي سيحقق غايته في إنقاذ وطنه.

يقول أحد تلاميذه وهو (محمد الصالح بن عتيق) الذي تخرج من جامع الزيتونة في منتصف الثلاثينات: (عُدت إلى الجزائر أحمل الشهادة وفرح بذلك أهلي، ولكن فرح أستاذنا العظيم كان أكبر، فقد استقبلني مع بعض الإخوان الذين فازوا في امتحان الشهادة استقبالاً رائعًا، و أقام لنا حفلاً مضيفًا، وأهاب بنا إلى القيام بالدعوة الإصلاحية، وفي الجهة التي نكون بها، ولم يكتفِ رحمه الله بهذا الفضل، بل نشر أسماءنا في مجلة الشهاب تحت عنوان "نجوم الجزائر" تشجيعًا لنا وتعريفًا للأمة بنا.

توفي ابن باديس في ١٦ نيسان ١٩٤٠م، وحضر جنازته حوالي ٥٠ ألف شخص رغم كل العراقيل التي وضعتها سلطة الاحتلال.. وهناك بعض الاتهامات التي وجهت للسلطة الفرنسية باغتيال الإمام ابن باديس بالسم.

بطل من أصحاب الأخدود

إنه الأسد الشجاع، بطل المسلمين، وفخر الجزائر.. الذي تحمل في سبيل الله ما تنوء به الجبال، وأتى من الصبر على البلاء لم يسبقه إليه إلا أولو العزم من أهل البلاء.

نحن الآن أمام رجل من الثابتين الذين منحهم الله تعالى قدرة على التحمل والصمود في سبيله، والرضا بالقضاء صابرًا محتسبًا، فهو تمامًا كأصحاب الأخدود في ثباتهم حينما ألقاهم الطاغية الأثيم في النار وأخدودها العظيم.. وقد لا نكون مبالغين إذا قلنا: إنه بلاء فاق بلاء الكثيرين من العلماء الثوار الثابتين في وجه الظلم والطغيان والغدر، والصابرين على المصائب الضخمة العظيمة.! وقد لا نبالغ إن قلنا: إن أحمد بن حنبل، وأبو حنيفة، وسعيد بن المسيب، وابن جبير، لم يكن كل هؤلاء بلاءهم، والذي أفضى ببعضهم إلى الموت، على هذا القدر الرهيب من البشاعة، التي لقيها هذا العالم الثبت البطل الشجاع الصابر المحتسب.. لقد عذب عذابًا تقشعر له الأبدان، وتغلي له المشاعر وترتجف له القلوب حرقة وألمًا وشفقة ووجلاً..

لكنه ﷺ يُعلمنا بما كان منه وما ضرب لنا من ثبات، معنى أن يكون العالم في أمته، وكيف يكون بين شعبه؟ وكيف يتحمل أمانة وطنه، وكيف يفني ذاته ويجود بنفسه ويتحمل الأذى في سبيل قضيته؟ مثل عظيم، وملحمة بطولية لا تنساها الأجيال وتظل مع الأزمان تروي عظمة صاحبها وبلاءه الذي تنذر في دنيا الأبطال.

كثيرون من الحاقدين تسوؤهم تلك البطولة، وغيرهم من الماكرين يحاولون إخفاءها والعمية عليها، حتى يقتلها النسيان ويندثر آثرها.. وذلك

كله لأن صاحبها وبطلها عالم دين مُعمم، استطاع أن يقود النضال، ويتزعم الجهاد، ويقوم بدور خالد في قضية تحرير الوطن، والاستبسال في التضييق على المحتل، حتى حانت لحظة الشهادة التي ختم بها حياته بطلاً شامخًا من أبطال الجزائر الأبية، والتي كانت حادثتها مذهلة، تقف النفس حيال ما فيها من تفاصيل وقفة خشوع واستعظام كبير.

ولد العربي بن بلقاسم بن مبارك التبسي عام (١٨٩٥م) في ناحية آسطح ببلدة تبسة، التابعة لمدينة قسنطينة، لأسرة فقيرة تعمل في الزراعة، وكان أبوه معلما للقرآن رحل عن الحياة حينما بلغ ولده سن الثامنة.

بدأ حياته بحفظ القرآن الكريم على أبيه، وبعد وفاته، التحق بزاوية ناجي الرحمانية في الخنقة فأتم بها حفظ القرآن خلال ثلاث سنوات، ثم التحق بزاوية مصطفى بن عزوز بجنوب غرب تونس عام ١٩١٠م وفيها أتقن رسم القرآن وتجويده وأخذ مبادئ النحو والصرف والفقه والتوحيد، وبعد أربع سنوات انتقل إلى جامع الزيتونة بتونس، ونال منه شهادة الأهلية، ثم رحل إلى القاهرة عام (١٩٢٠م) ودرس العلوم الشرعية في الجامع الأزهر.

وفي عام ١٩٤٧م تولى العربي إدارة معهد ابن باديس في قسنطينة، وانتقل عام ١٩٥٦ إلى العاصمة الجزائر لإدارة شؤون جمعية العلماء.

وبعد رحلته الطويلة لطلب العلم في تونس ومصر، عاد التبسي إلى الجزائر عام ١٩٢٧م، وكان لابد أن يقوم برسالته كعالم يوقظ الناس ويبصرهم بأمور الدين، ويعالج قضاياهم ويبدأ في القيام بدوره كعالم وقائد يوجه الناس لواجبهم الوطني والديني.. فاتخذ من مسجد صغير ببلدة تبسة مركزًا لنشاطه الدعوي والتعليمي.

وعندما اكتظ ذلك المسجد برواد دروسه وحلقاته العلمية، اضطر إلى الانتقال إلى الجامع الكبير في المدينة، والذي كان يومها خاضعًا لإشراف إدارة

الاحتلال الفرنسي. لكنه لم يلبث كثيرًا حتى منعته تلك السلطات من النشاط في ذلك الجامع، بإيعاز من بعض رؤوس الطرقية والخونة المتعاونين مع الاحتلال، ممّا اضطره إلى العودة مرة أخرى إلى النشاط في المسجد الصغير الذي بدأ منه في أول الأمر.. كان الشيخ التبسي يركز في دروسه وخطبه على جوانب الإصلاح في أمور العقيدة، وتطهيرها من الخرافات والبدع التي علقت بأذهان الناس، من جرّاء نفوذ السلطة الدينية الطرقية في نفوسهم وتأثيرها على عقولهم، إلى جانب التركيز على الأمراض الاجتماعية المنتشرة آنذاك وآثارها الوخيمة على الفرد والمجتمع، وعلاقة الاستعمار بما كان يُعانيه المجتمع من ضيق وعناء في أمور الدين والدنيا.. وبعد انتشار أفكار الشيخ الإصلاحية في تبسة وضواحيها، وإقبال الناس على دروسه وجلساته، اشتدت المضايقات عليه وأنصاره مِن قِبَل إدارة الاحتلال وأعوانها من الطرقيين والانتفاعيين، فنصحه الشيخ ابن باديس بالخروج من تبسة إلى مدينة سيق بغرب الجزائر.. وكان أهلها قد بنوا مدرسة جديدة دعوا الشيخ التبسي لإدارتها، ووصل الشيخ التبسي إلى سيق سنة ١٩٣٠م، وشرع في عمله فيها مترددًا بين فترة وأخرى على تِبسة إلى غاية سنة ١٩٣٣م، حيث قرّر العودة إليها مرة أخرى بعد إلحاح أهلها عليه وحرصهم على بقائه بينهم.

وبعد وفاة علامة الجزائر عبد الحميد بن باديس ونفي البشير الإبراهيمي، اتجهت الأنظار إلى التبسي بصفته المؤهل لملء الفراغ العلمي والدعوي، فتوافد إليه طلاب العلم من كل مكان.. واعتمدت طريقة الشيخ التبسي في التدريس على قراءة نص قرآني أو حديث نبوي فيفسر مفرداته والمعاني والحكم التي يتضمنها، وبعد الجانب التعليمي من الدرس، ينتقل إلى الأمراض الاجتماعية فيشرحها ويبين أسبابها وعواقبها في الدنيا والآخرة.

لم يكن التبسي كهؤلاء العلماء الإمعات الذين يرضون بالدنية، ويظنون أنهم بالعلم وحده إنما يؤدون رسالتهم على أكمل وجه و أفضل أداء، ويسول لهم الشيطان خادعًا لهم، أن هذا واجبهم المنوط بهم حتى يُثنيهم عن مسؤوليتهم الكبرى في قيادة الأمة، وجهاد عدوها والتصدي لكل انحراف يصيب مسيرتها.. لقد هاجم التبسي من يُسميهم أدعياء التصوف، ووصفهم بالدجالين الضالين.. وهم أول الفرق والفئات التي كانت تُناصر المحتل، وتبرر الهزيمة، وتشرع التخاذل، وترفع لواء التبعية والاستسلام للظلم والانحناء للطغاة، كما وظف مكانته الدعوية والعلمية بين الجماهير في الحث على الجهاد، فحث الشباب واستنفرهم على القتال والانخراط في الثورة، والقيام بدورهم في تحرير البلاد من المحتل الغاشم، ولم يكن جهاده وتوعيته بلسانه فقط، وإنما قام بنشر مقالاته في صحيفة الشهاب تحت عناوين قوية من قبيل "الجزائر تصيح بك أيها الجزائري أينما كنت".

وبعد هذا الجهر بالعداء والتحريض من التبسي ضد الاستعمار الفرنسي نصحه الكثير من أصدقائه، وحاولوا إقناعه بالخروج من الجزائر بعد أن أصبح هدفًا واضحًا للمحتلين فكان جوابه: "إذا كنا سنخرج كلنا خوفًا من الموت فمن يبقى مع الشعب؟".

ثم يزيد في إصراره وثباته حيث يقول: "لو كنت في صحتي وشبابي ما زدت يومًا واحدًا في المدينة، ولأسرعت إلى الجبل فأحمل السلاح و أقاتل مع المجاهدين.!".

علم المستعمرون أن الشيخ العربي التبسي يتمتع بشعبية كبيرة، و أنه مؤيد للجهاد وأحد محركي القواعد الخلفية له، فأرسلوا إليه عن طريق إدارتهم في الجزائر عدة مبعوثين للتفاوض معه بشأن الجهاد ومصيره، وبعد رفضه المستمر للتفاوض باسم الأمة، وأن عليهم التفاوض مع المجاهدين

فقط، رأى المستعمرون أنه من الضروري التخلص منه، ولم يستحسنوا اعتقاله أو قتله علنا، لأن ذلك سوف يزيد من حماس الأمة للجهاد ومن حقدها على المستعمر، فتم خطفه، و قد نقل المجاهد أحمد الزمولي عن إبراهيم البوسعادي الذي كان ضمن تشكيلة القبعات الحمر وحضر معهم يوم اختطاف الشيخ من بيته، كما حضر مراحل إعدامه وكان منظر الإعدام سببًا في التحاقه بالمجاهدين كما ذكر، وجاء في هذه الرو اية ما يلي: " وقد تكفل بتعذيبه فرقة الجنود السنغاليون في الجيش الفرنسي، والشيخ بين أيديهم صامت صابر محتسب لا يتكلم، إلى أن نفذ صبر "لاقايارد" قائد فرقة القبعات الحمر الفرنسية

وبعد عدة أيام من التعذيب، جاء يوم الشهادة، حيث أعد للشيخ قدر كبير مليئ بزيت السيارات والشاحنات العسكرية والأسفلت الأسود، وأوقدت النيران من تحتها إلى درجة الغليان، والجنود يقومون بتعذيبه دونما رحمة أو شفقة وهو صابر محتسب، ثم طلب منهم لاقايارد حمل الشيخ العربي.. فحملوه وأوثقوا يديه ورجليه، ثم رفعوه فوق القدر المتأجج، وطلبوا منه الاعتراف وقبول التفاوض وتهدئة الثوار والشعب، والشيخ يردد بصمت وهدوء كلمة الشهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله، ثم وضع قدميه في القدر المتأججة فأغمي عليه.. ثم أنزل شيئًا فشيئًا إلى أن دخل بكامله فاحترق وتبخر وتلاشى.

فرحمه الله رحمة واسعة، ونسأل الله أن ينتقم من الطواغيت في كل مكان.!

القسام إمام المجاهدين

كانت بلدة جبلة السورية عام ١٨٨٣م على موعد مع ميلاد ثائر عظيم ذاع صيته، ولمع نجمه، وكان له دوره البطولي في كفاح المحتلين، وإحياء اليقظة الإسلامية، وإلهاب الشعور الديني بين أبناء وطنه.. ذلكم هو العالم المجاهد (محمد عز الدين القسام) كانت أسرته فقيرة تعيش على الكفاف، لكنها كانت متدينة ومعروفة بتدينها وحبها للعلم الشرعي، وكان والده وجده من رواد الطريقة القادرية الصوفية المنسوبة للإمام عبد القادر الجيلاني، قرأ القرآن الكريم وتعلم القراءة والكتابة والحساب في الكتاتيب، ودرس مبادئ العلوم الشرعية على والده، وتتلمذ في جبلة في زاوية الإمام الغزالي لشيخين عُرفا بسعة العلم والمعرفة في اللغة والتفسير والحديث والفقه، و أرسله أبوه إلى مصر لينهل من العلم في رحاب الأزهر الشريف وهو في الرابعة عشر من عمره عام ١٨٩٦م، وجلس ١٠ سنوات إلى أن نال العالية الأزهرية سنة ١٩٠٦م، وعاد إلى بلدته جبلة، وتولى تعليم الأطفال في الصباح، وتعليم الكبار في المساء، ووظف كل طاقته وإمكاناته في التعليم، وفتح مدرسة في جبلة سنة ١٩١٢م، ودرّس الحديث وتفسير القرآن الكريم في جامع إبراهيم بن أدهم بجبلة، ثم عُيّن موظفًا في شعبة التجنيد بجبلة، وعندما صار خطيبًا في جامع المنصوري في وسط البلدة، كان المصلون يتو افدون إلى المسجد من أحياء البلدة القريبة والبعيدة ومن القرى المجاورة، «كانوا يتو افدون لسماع هذا النمط الجديد من خطب الجمعة التي تهز المشاعر، وتعالج المشكلات اليومية، وتتناول هموم المسلمين، وكان الخطباء، قد تعودوا أن يُسمعوا المصلين في كل خطبة كلمات الإطراء والحمد للأفندية والأغوات، أما عز الدين القسام، فقد كسر العرف عندما اعتلى منبر جامع المنصوري، وأسمع

الناس شيئًا جديدًا يوقظهم من ثباتهم فكان يقول :«إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» كونوا أعزة كرماء «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» ولا إيمان لمن رضي بالخنوع، واستكان للظلم، واستعذب العبودية للبشر.» كان أكثر المشايخ تطرقًا لضرورة الجهاد، ومنع الصهيونية من أن تحقق أحلامها في بناء وطن قومي على أرض فلسطين، وكان يركز على الاستعمار البريطاني والصهيونية، ولقد استجوبته السلطات البريطانية لعدة مرات.. وجه القسام اهتمامه بتعليم أطفال القرية حتى تغيرت معالمها ودب في أهلها حماس ديني شديد.. وفي ٢٧ أيلول ١٩١٨م أعلن جمال باشا انسحاب الدولة العثمانية جيشًا وحكومة من سوريا، وفي مطلع تشرين الأول ١٩١٨م دخلت جيوش الحلفاء دمشق.

وفي عام ١٩١٩م تألفت الفرق الثورية في سوريا بعد قيام فرنسا بتقسيم المنطقة، وأخذ (القسام) يحرض الجماهير ضد المستعمرين ويدفع للثورة عليهم، وكان أول من لبى وأجاب، فانضم إلى الثوار في قرية شير القاق من جبال صهيون، وانتظم في عداد رجالها وتقلد السلاح جنديًا في خدمة الإسلام، وكان معه طائفة من مريديه وأتباعه الذين علمهم ورباهم، وكان أول من رفع راية المقاومة ضد فرنسا، وأول من حمل السلاح في وجهها، واستمر في جهاده قرابة عام في " ١٩١٩ _ ١٩٢٠" وكان يلقب بداعية الجهاد، وباع بيته لشراء السلاح، ليقتدي به من حوله في التضحية بالمال والنفس، واستجاب لدعوته الجهادية جمع غفير من الناس، دربهم على حمل السلاح وفنونه، وكان القسام ذا خبرة في استعمال السلاح لأنه التحق بالجيش العثماني، عندما دعا السلطان إلى الجهاد لمحاربة الإنجليز، وله خبرة أسبق من ذلك، في إعداد المجاهدين وتجهيزهم عندما استجاب لنداء الحكومة العثمانية للتطوع لحرب إيطاليا في طرابلس سنة ١٩١١م.

ولما أحاط به الفرنسيون وأوشكوا على القضاء عليه أثناء المقاومة، رأى أن مُنازلتهم في سهول جبلة المكشوفة تتيح لجيشهم قمع ثورته، فتطلّع إلى موقع أكثر حصانة فاختار جبال صهيون ميدانًا للجهاد، فنزلها ورجاله، وطفقوا يغيرون على المراكز العسكرية الفرنسية، وكان لهجماتهم أثر شديد الوقع على الفرنسيين، فحاولوا إغراءه واستمالته لوقف حركته، ولكنه أبى وتمنع عليهم وقال لرسولهم: «عد من حيث أتيت، وقل لهؤلاء الغاصبين: إنني لن أقعد عن القتال أو ألقى الله شهيدًا»، وصدر عليه حكم بالموت غيابيًا، في منشور يضم اسمه وعددًا من المجاهدين.. ووضع الفرنسيون مكافأة قدرها عشرة آلاف ليرة لمن يدل على مكانه، أو يمسك به ويقدمه للسلطات الفرنسية، وكان يزور القرى ويجوب المدن يدعو فيها للجهاد، واستطاع أن يكون تنظيمًا جهاديًا سريًا لمواجهة المحتلين وإحياء فريضة الجهاد.. وانتقل عز الدين القسام إلى دمشق للدفاع عنها من الاحتلال الفرنسي، ثم غادرها بعد استيلاء الفرنسيين عليها سنة ١٩٢٠م، وأقام في حيفا.. وبعد أن غادر حيفا مع مجموعة من المجاهدين متجهًا إلى يعبد، كان يتعقبهم مجموعة من جواسيس البريطانيين، فعرفوا مكان استقراره ورفاقه، فحاصرهم البوليس الإنجليزي يوم ١٩٣٥/١١/٢٠م بـ ١٥٠ شرطيًا وحلق القائد البريطاني فوق موقع الشيخ ورفاقه "في أحراش يعبد" في طائرته، وعندها عرف القسام أن البوليس قادم لا محالة.. واتخذت المعركة بين الطرفين شكل عراك متنقل، وساعدت كثافة الأشجار على تنقل أفراد الجماعة من موقع إلى آخر، واستمرت حتى الساعة العاشرة صباحًا، وحارب الشيخ، وكانت شفتاه تتفوهان بالدعاء، وكانت نتيجة المعركة، استشهاد الشيخ واثنان من رفاقه.. وبعد انتهاء المعركة، تعمد قائد البوليس الإنجليزي إهانة جثة الشهيد القسام، ويقال: إنه داس على رقبته بحذائه.!

لأنها الرقبة التي ظلت مرفوعة أبية، لأنها الرقبة التي حملت رأسا مملوءة بالعزة والشموخ، لأنها الرقبة التي حملت رأسًا معممة قائدة رائدة مناضلة، لتصير بعد ذلك رمزًا للجهاد في سبيل الله، والنضال لحرية الأوطان والجلاء.

الفهرس

مقدمة	٥
تمهيد : التآمر على القيادة المؤمنة..	٩
وهب نفسه فداء للحق!	٢٠
يتحدى رأس الدولة!	٢٤
مالي ولسعيد بن جبير؟!	٣٠
غيلان.. شهيد الحرية	٣٦
يَهزِم الطاغية بالقرآن	٤٢
أبو حنيفة قاهر المتجبرين	٤٨
مالك يصادم الطغيان	٥٤
قذائف تزلزل عرش المنصور	٥٨
البويطي.. أسد في القيود	٦٨
سلطان العلماء وبائع الأمراء	٧٤
النووي والمواجهة الحامية	٨٠
الخبوشاني الصادع بالحق	٨٦
الإمام المسلوخ!	٩٠
الجبرتي.. صوت الحرية الخالد	٩٦

الأزهر معقل الثورة ١٠٠
العدوي في قفص الاتهام؟ ١٠٨
الإمام الثائر ١١٢
المراغي عدو الاستعمار ١٢٠
رائد الثورة وقائد التحرير ١٢٦
بطل من أصحاب الأخدود ١٣١
القسام إمام المجاهدين ١٣٧
الفهرس ١٤١
رسالتنا ١٤٤

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية و أفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

Gmail

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook

facebook.com/arabiclibrary2017